صالح ابو اصبع

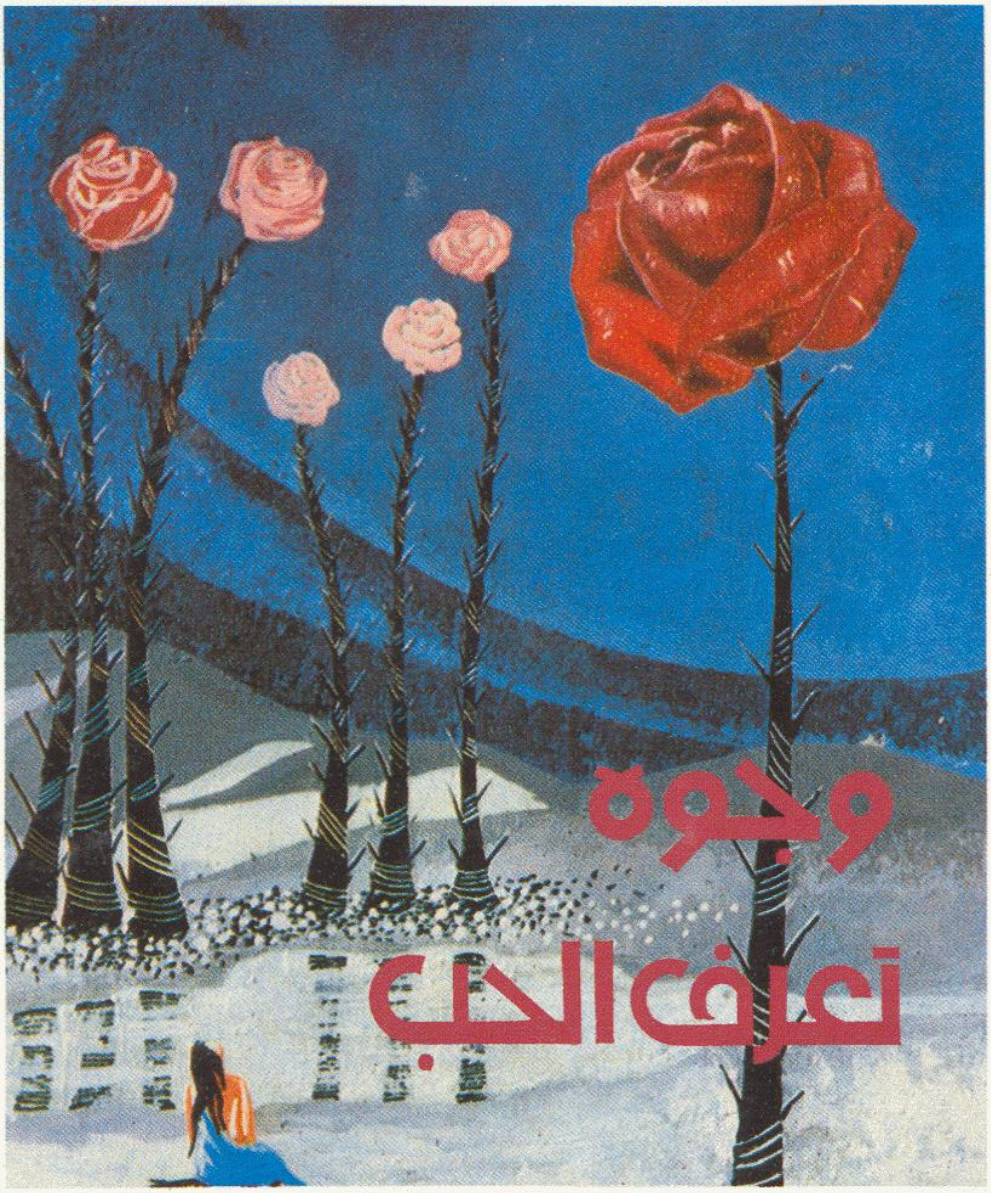

وجوه تعرف الحب

دار الملتقى للنشر

وُجوهٌ تعرفُ الحُبّ

قصص قصيرة

طبعة إلكترونية –2019

وُجوهٌ تعرفُ الحُبّ

قصص قصيرة

(الطبعة الأولى ، قبرص : دار الملتقى – 1992)

الطبعة الثانية –2000

صالح خليل أبوأصبع

طبعة إلكترونية –2019

وُجوهٌ تعرفُ الحُبّ

الفهرس

حادثة اختطاف	7
جواز سفر	13
هيا نضحك	21
هو والفتاة	29
جمانة	37
ندى	45
ريما	55
زهراء	63
البيت المهاجر	69

سحـر يوم ربيـعي	73
روح هائمة	**77**
الأمل باللقيــا	**81**
ليس هناك سوى الأمل	**85**

حادثة اختطاف

منذ أن قست ذلك الحذاء وأنا أشعر بضيق يفوق ذلك الضيق الذي عانت منه قدمي ، ولكن إصرار زوجتي كان عجيباً بأن هذا الحذاء هو أجمل حذاء رأته في قدمي ، ولم يخطر ببالي قط أن يكون لذلك الحذاء الأنيق قصة أهي مضحكة ؟ .... أم محزنة ؟ ..... أم مثيرة ؟ ذلك أمر يستدعي أن أرويه لكم .

كان ذلك يوم الثلاثاء وهو يوم لم يفارقني فيه النحس طيلة أيام سفري . لم أركب الطائرة يوم الثلاثاء إلا واستضافتي فيها مطار ساعات طويلة لأعاني منها كثيراً من مواعيد طائرات تتأخر أو لا تأتي . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أيضاً ، حينما أصر مفتش الجمارك على تفتيشي تفتيشاً ذاتياً . وان كان القانون يجيز له ذلك ، كرامتي رفضت ذلك المهم أن ذلك كان . ووقفت في ردهة الانتظار أقضي

ساعة أخرى من الملل ، واقفاً تارة ، وتارة أخرى أبصبص على مدرج الطائرات بحثاً عن الطائرة التي ستقلني .

مرّت تلك الساعة ، ومرت أخرى ، ليعلن صوت كريه في الميكروفون بأن الطائرة ستتأخر ساعتين أخريين ، يا الويل .... ! قلت ذلك في نفسي . وأنا أشعر بأن قدميّ مسمرتان يضغط عليهما بعنف فيتمزقان من الألم . وحاول رجل قصير ذو وزن ثقيل أن يمد قامته ، لنظر إلى الطائرات القادمة ، فلم يجد أفضل من قدمي يعتليها . فندت عن صرخة ألم ، فتخيلت أن سكيناً حاداً قد مرت على أطراف أصابعي فبترتها . فلعنت ذلك الحذاء وتلك الأناقة ، وذلك الرجل القصير الذي أخذ يعتذر لي بشدة ، وأنا لا أسمع له، ولا أرد عليه .

وكان الإعلان عن مقدم الطائرة بالنسبة لي كلحظة انعتاق من سجن رهيب ، وكأني في حلم ، تخيلت نفسي في الطائرة وأنا أخلع الحذاء اللعين ، واترك لقدمي العنان ، فأحرك أصابعي بحريه، وبدون ضغط من ذلك الحذاء .

وما أن بدأ الإعلان عن رحلتنا حتى تدفّق الركاب في اتجاه الطائرة لم تكن هناك حافلة تقل الركاب لتصلهم إلى الطائرة فاندفعوا كالسيل من الغنم نحو الكلأ . ولا أخفيكم أنني كنت أشد الناس اندفاعاً نحو باب الطائرة . ولم أتوان لحظة عن الجري برغم الآلام في قدمي ، ولم أتكاسل عن دفع شخص من اليمين أو اليسار ، لأقف أول طابور على سلم الطائرة .

وصعدت السلم وتهالكت على المقعد ، لأحقق تلك المتعة التي شعرت بحاجتي إليها . خلعت الحذاء، وبدأت أريح قدمي من عناءه وتدافع الركاب من حولي كل يحاول أن يحجز لنفسه كرسياً مستقلاً وابتدأت المقاعد بالتدريج تمتلئ . وتمنيت أن أظل وحيداً في المقعد ، أو على الأقل لا يبليني الله بأحد الثرثارين

الذين يصـرون على المحادثة في أي شـئ ، حتى لو كان سـؤالاً عن المكان الذي اشتريت منه ذلك الحذاء الأنيق وكاد الله يحقق أمنيتي ، لولا تلك المرأة التي قدمت في آخر لحظة ومعها طفلان أحدهما رضـيع ، والآخر لا يتجاوز السـادسـة من عمره جلس طفلها بجواري ، وجلسـت هي في الكرسـي الآخر ، وتمنيت من الله مرة أخرى أن يكون طفلها من اللذين يعشقون نوم الطائرات فيستسلم للنوم فور إقلاع الطائرة . حتى هذه الأمنية لم يحققها الله لي .

كان شقياً ويتحدث ويستفسر يتساءل ويجاوب نفسه ، ويغني ويأكل ويصفق ولا يتورع على أن يلعب في حاجياتي بدءاً من جواز السفر وانتهاء بعلبه السجائر . وفوق هذا، كان عليّ أن أنام أو أتناوم ، كي يكف عني شرّ اسـتفسـاراته . . أما أمه فقد غطت في نوم عميق ورضيعها على يديها بعد إقلاع الطائرة بقليل .

حاولت النوم ولا أظن أنني غفوت طويلاً ، ولكن على أي حال شـعرت بأن لي قدمين ـــ فقد استعادتا شيئاً من نشاطهما المعتاد الذي أعهده فيهما بدون ضـغط الحذاء اللعين . ولم يكن في الإمكان أن تظل قدماي طليقتين بدون الحذاء ، وبخاصـة بعد أن ارتفعت الطائرة في أعالي الجو ما يقرب من 31 ألف قدم . وبعد أن قطعت مئات الكيلومترات ، إذ شعرت ببرود تسري إلى قدمي وهي تلاصق معدن الطائرة ، وكان أمامي خياران . . إما أن أترك لقدميّ حريتهما مع تلك البرودة التي في عروقهما ، أو أن ألبس الحذاء ولو نصف لبسة .

انحنيت لأتناول الحذاء بحثت عنه تحت قدمي فلم أجده وكان الطفل ينظر بعينين المكر والشماتة ، وصاح خطفوها... خطفوها.

قلت: خطفوها كيف ؟ ...

كانت خلفنا امرأة صـرخت بفزع خطفوها .. خطفوها وسـرت بلمح البرق تلك الكلمة لتخيل على الطائرة جواً من الرعب والخوف وأصبحت تلك الكلمة تتردد على الشفاه .. خطفوها ... خطفوها. لم يجرأ أحد على التسـاؤل ما المخطوف ؟ ومن الخاطف ؟ وكيف تم ذلك؟

وتخيل المســافرون ان هناك قوى مســلحة اقتحمت كابينة قيادة الطائرة ، وحولت إلى مكان آخر. ولم يســتطيع أحد أن يدرك ماذا جرى ولا كيف ســرى هذا الرعب في الطائرة ، وأصيب المضيفون والمضيفات بارتباك شديد .

ولم ينقذ الموقف ســوى مقدم قائد الطائرة ليتســاءل عن هذا الهرج و المرج الذي يحدث في صـفوف الطائرة وكان هو الوحيد الذي باسـتطاعته ان يقنع الجميع ان لا اختطاف حدث للطائرة ، فعاودت السكينة إلى الركاب

كان واضـحا ان أحد ضـباط أمن الطائرة قد بدأ في اسـتفسـار عن سـبب الإشاعة والفوضى التي دبت ، ولم أجرؤ أن أحدثة عن ضياع الحذاء ، و قلت في نفسي لعل هذا الحذاء مصاب بعين حسود وهو مصر على الإيقاع بي، ولذا حلفت أن أتخلص منه فور هبوطي على الأرض .

وما أن أعلنت المضيفة عن ضـرورة ربط الأحزمة والبقاء في المقاعد حتى علا صوت من مؤخرة الطائرة يعلن عن وجود حذاء يبحث عن صاحبه . قلت في نفسي هل أترك الحذاء أم آخذه ؟ واتقاء للفضيحة قررت أن لا أجيب النداء ، وأن أنزل آخر راكب في الطائرة لأستلم الحذاء بعيداً عن أعين المتطفلين والساخرين .

وحين هبطت الطائرة وبدا الركاب النزول بقيت في مقعدي جالســاً حتى نزل آخر راكب ، فتقدمت نحو أســأله عن الحذاء ، فأجابني أن الحذاء هبط به موظف الأمن بعد أن رفض الركاب التعرف عليه .

وهكذا كان علي أن أهبط من الطائرة حافي القدمين ، أجرجر من وراء هذا اللعين خزياً لم أشعر به طيلة حياتي ، وان كانت قدماي قد شعرتا براحة وهما تدبان حرتين طليقتين على مدرج المطار .

وبعد أن أكملت اجراءات الجوازات ، كان أكثر من شـــخص ينظر إلى قدمي وإلى وجهي ، واقترب مني شخصان ويبدو عليهما الجد والرصانة .

قال أحدهما : " أنت صاحب الحذاء أليس كذلك ... ؟ وقبل أن ، أجيبهما أحاطاني بذراعي وقالا لي: أنت مطلوب للأمن " .

(1977/11/14)

جــواز سفــر

– أعطني جواز سفرك ..... "

" قلت لك هات جواز سفرك ..... "

" جواز سفري ماذا تريد به ؟ ..... أوه آسف . "

وختم ضـابط الجوازات جواز السـفر . وامسكته بيدي متلهفاً نعم هذا هو جواز سـفري .... أخيراً عاد إلى وخشـيت أن أعطيه لذلك الضـابط فيجري لي ما جرى ولسابقه ، ويه تلك قصتي مع الحظ العاثر والله أعلم بما خفي .

حينما قدمت لهذه البلد كنت فرحاً للتعاقد للعمل كمدرس مهما كان المرتب فذلك أفضـل من لا شـيء. على الأقل سـأجد بعض الدنانير التي أوفرها لأرسلها لأهلي وسأضمن لفافات التبغ على الأقل ، ولكن جواز السفر لم يترك لي متعة التلذذ بالدنانير التي حلمت بتوفيرها....

جواز السـفر له قصـة ، وفي العادة أن يبدأ الناس من بدايتها ولكن أنا سأبدأ من النهاية ..... .

ها أنا الآن أحمل جواز السـفر مغادراً هذا البلد الشـقيق بعد عام كامل قضـيته وأنا أبحث عن لقمة العيش لا بل عن جواز السفر .

حينما وصـــلنا المطار انتبه أحد الزملاء كيف أنني أقبض على جواز السفر بكلتا يدي، وقال " هل ستبلعه الأرض .... لماذا تمسكه هكذا " ...

أوه أنا الآن أتذكر .... " هل ســـتبلعه الأرض ..... " هكذا قال لي ضابط الجوازات الذي ذهبت لأراجعه لأول مرة بعد وصولي إلى البلد الشقيق ، فلا بد من اجراءات للإقامة ، ولا بد أن تتم في أسـرع وقت بدلاً من دفع غرامة التأخير التي يحتاجها أهلي أكثر من خزانة الدولة

قال لي : " هل تظن أن جوازك سـتبلعه الأرض .... عد إلينا في الأسـبوع القادم " .

حاولت ان افهمه أن الإيصال الذي في يدي لا يثبت هويتي ولا يثبت أن لدي جواز سفر . قال لي :

(افهم أن هذا الإيصال يثبت أن لك جوازاً ، لكن عد بعد أسبوع(.

حاولت أن أفهمه أنني مدرس في منطقة نائية ، ولكي أصل إلى المدينة احتاج إلى ركوب الحمار لأجد السيارة تنقلني إلى المدينة فأقف ساعات طويلة في المس ويضيع النهار كله ويخصم الدولة على مرتب يوم كامل حتى أصله .

ولكنه قال لي : " عد في الأسبوع القادم . "

ورجعت إلى المدرسـة في تلك القرية النائية وأصـبحت قصـة جواز السـفر مسـألة ملحة تشـغل بال زملائي كلهم ، فأوقات الفراغ لديهم كثيرة و لا يجدون من الموضوعات ما يثير انتباههم أكثر من جواز السفر .

ولعل (سـعيداً) كان واحداً من الذين يدركون أهمية ذلك، إذ قال لي : " لو انتهت قضية جواز سفرك لانتهت مشاكل الأمة العربية ولحررنا فلسطين . " ...

فضـــحك زميل آخر وقال : " إذا كان جواز الســـفر يفعل ذلك ... خذ جواز سفري لعله يسهم في التحرير " ، وضحك الجميع إلا سعيد وأنا .

كنت أفكر في أمور كثيرة أهمها جواز الســـفر ، نعم جواز الســـفر كيف أتحرك داخل البلد دون أن يكون معي جواز ســـفر ؟ وفي أي لحظة يمكن أن يوقفني شـــرطي أو رجل مباحث ليقول لي : أين جواز ســـفرك .. وقد يؤدي عدم وجود جواز السفر إلى رميي في السجن أشهر أو سنوات بدون أن يعرفني أحد أو أن يحقق معي وقد يقذف بي إلى الحدود ، فأدخل في دوامة من التحقيق التي توصلني إلى السجن .

لعل الحظ العاثر يطاردني ، ذلك أمر ما عدت اســتغربه ، في الأســبوع التالي غادرت القرية التي أدرس فيها على ظهر شـاحنة تحمل الدقيق . والشـمس اللافحة تحرق الأخضر قبل اليابس ، ودفعت لسائق الشاحنة مبلغاً كبيراً .

وقبل أن أدخل دائرة الجوازات ، قلت لنفســي ماذا لو ضــاعت هذه الورقة التي تثبت ان لي جواز ســفر . فقررت أن أصــوّر منها نســخاً تكفي لاثبات وجود جواز السفر لدى هذه الدائرة .

استنسخت خمس صور وترحمّت على النقود التي دفعتها ثمناً لها . كنت أخشى أن تضيع الصور . وزعت كل صورة في جيب من جيوبي ، وشعرت براحة وأنا أضرب على جيبي الخلفية اليمنى ثم اليسرى فأسمع خشخشة الأوراق فأطمئن وتهدأ نفسي قليلاً ، ودخلت متفائلاً إلى دائرة الجوازات , وهناك قابلني الرجل نفسه .... كان مكتبه صـــغيراً إلى حد ما ، فيه مكتبان ويجلس قبالته مباشـــرة موظف

آخر ، وحينما رأياني بادرني أحدهما بالقول : " أهذا أنت ... " فخفق قلبي ... قلت : إنها الفرحة ، فهما يتذكراني ولعلهما وجدا جواز السفر أخيراً .

سألت أين جواز السفر ؟ ... فضحكا معاً ضحكة شعرت معها بعدم الراحة وخشيت ان يقولا لي موعدك في الأسبوع القادم ، فسألت هل وجدتما جواز السفر ؟

فصرخ بي الضابط : " ومن قال لك انه قد ضاع هل تظن أن الأرض ستبتلعه ، ولكن الإجراءات تأخذ وقتها" " .

لم أعرف ماذا أردّ عليها ، فسألتهما هل أعود الأسبوع القادم ، فقالا لي عد الأسبوع القادم .

مضى علي شهر وآخر وثالث ورابع وأنا أطارد جواز السفر وكأن الأرض قد بلعته هكذا قلت في نفسي وفي المرة الأخيرة التي ذهبت فيها لأسأل عن جواز السفر وجدت شخصين جديدين في الغرفة ...

سألني أحدهما : ماذا تريد ؟

فتحت محفظتي وبعناية استخرجت مهنا الوصل ، وقلت لهما أنني انتظر جواز سفري من أربعة شهور وسألت : أين الضابط فلان . وفلان فهما يعرفان مشكلتي ؟

فأجابا رحمهما الله .

استغربت .. لقد كانا شابين لا يتجاوز الواحد منهما الثلاثين عاماً .. هكذا يموتان سريعاً ، تأسفت عليهما ، لست أدري لماذا ، لقد كانا جزءاً من عذابي اليومي ، وكانا جزءاً من الروتين الأسبوعي الذي تعودت عليه .

قال أحد الموظفين الجديدين : " ماذا تنتظر ... عد في الأسبوع القادم "

.

حينما قالها لي خرجت بدون أن أفكر . قابلني الساعي وهو رجل عجوز ، فسألته عن الضابطين . فهز رأسه آسفاً على ميتتهما الشنيعة ، التي حدثت نتيجة انقلاب سيارتهما في واد سحيق وهما في حالة سكر شديد .

قررت أن أبدأ حياتي من جديد بدون التفكير في جواز السفر . ولم أذهب في ذلك الأسبوع لأتابع اجراءات جواز السفر، إلا أن عيوناً كانت تترصد ني كما يظهر . أوقفني رجل وأنا في طريق عودتي من المدينة .. وضع يده على كتفي وكأنه يصطاد صيداً ثميناً ...

– " أنت أين إقامتك " .

* " أنا .. أنا مدرس ... في مدرسة ... هاهي أوراقي .... " ومددت يدي لاستخراج تلك والورقة ,,, وأريته إياها ... وأخذ يضحك بصوت عال جمع المارة حولنا ...

وقال لي : " تريد أن تضحك علي يا ... ما هذه الورقة . " ....

كان يمسك الورقة بالمقلوب ... عفواً .... لماذا يظل أمياً والأموال من حوله ليس له فيها نصيب ؟

قلت له : هذا وصل جواز السفر ...

– جواز سفر هذه الورقة جواز سفر ... أين صورتك ؟

وامسك خناقي .. وكان يدفعني دفعاً أمامه . وسمعت بعض الهمسات.. حرامي ...

حرامي ... وقادني إلى مخفر الشرطة .... بقيت ساعات طويلة بانتظار أن يسألني أحد في المخفر أي سؤال ....قابلت وجوهاً كثيرة .. ولست أدري ما الذي جمع كل هؤلاء ؟ ولكن شيئاً واحدا كان يجمعهم ... لعله الفقر . بعد ساعات طويلة أخذت أصـرخ .. جاء أحد حرّاس الحجز في المخفر ، وسـأل عن الذي يصـرخ ، تقدمت لأقول له أريد أحداً يحقق معي ، فعالجني بلكمة على فمي ، وبعصـــاه الثقيلة على جنبي ... وبرفســـة في بطني فوقعت على الأرض .....ثم قدم ضـــابط المخفر ، وكأنه جاء يتســـلى بالمنظر ، ثم أشـــار إلى بأن أتبعه . دخلت خلفه الحجرة ، وحينما أصـبحت في منتصـفها . دار وجهه ثم عالجني بصـفعة على وجهي .. صـــارخاً : " يا كلاب لا تجدون ما تأكلونه في بلادكم ... وتأتون بلادنا .. ثم تصرخون ولا يعجبكم العجب " .

كان بودي أن أقول له أن هذه بلادنا أيضـاً ... ولكننا معلقون بمشـنقة اسـمها جواز السفر .

قلت له :

" هناك سوء فهم .. أنا مظلوم ... أنا مدرس ... " .

التفت إلى : " ماذا ؟ أنت مدرس .. ؟ " .

قلت له : " نعم .... " .

ومدت يدي لأعطيه صـورة إيصـال جواز السـفر ... وجلس على طرف مكتبه ... وأمسك بالوصل ... ثم قال لي اجلس .... أحسست بالراحة بعد ذلك ... فشكوت له مرارة الظلم الذي عانيته أثناء اعتقالي وضـربي بلا سـبب... فضـحك وقال : " أنت متعلم ... ويجب أن يكون بالك طويل .. هذه اجراءات اعتيادية ... يجب أن

تتحملها أنت وغيرك من الأبرياء وإلا فكيف يمكن أن نقبض على المجرمين إذا لم يكن هناك ضحايا . "

وحدّثتُ نفسي ، منطق سليم .. ضحايا ... ولماذا نحن دائماً الضحايا .. لكن هل يقبضون على المجرمين الحقيقيين ؟ .

وحكيت له قصة جواز السفر .. قال : " طوّل بالك .. ما دمت قد سلّمت جواز السفر ... لا تخش شيئاً ، الأرض لن تبلعه "..

عدت إلى القرية حيث التم الزملاء ليسمعوا مني حكايات جواز السفر ، وما استتبعه من مشاكل ... قررت أن أعود في الأسبوع القادم ... وألا ارجع من غيره مهما كلفني ذلك .

واستدعاني مدير المدرسة في اليوم التالي واخبرني أنه لم يعدْ يستحمل سفري الدائم من اجل جواز السفر ، لأن ذلك يؤثر على أدائي واجبي وان غيابي بعض الحصص ... لا يمكن أن يظل إزاءه صامتاً دون أن يخبر إدارة التعليم ...

حاولت أن أفهمه أن ذلك ليس بإرادتي ... وان أفهمه أن حياتي ... مربوطة بجواز سفر ... وان فقدته يُسبب لي من المتاعب أكثر مما لو فقدت وظيفتي ....

وقلت له : " لماذا لا تساعدني من خلال معارفك في المدينة تريحني وأريحك من إزعاجي ..". برهة ... وقال :

– إذن انتظر ... بعد أسبوعين لي رحلة إلى المدينة سآخذك معي .

مر الأسبوعان وكأنهما شهران ثقيلان ، ولم تستطع نكات الزملاء ولا قصصهم أن تزيح ثقل الأيام ، ولا ان تنسيني خوفي من فقدان جواز سفري .

وحينما ذهبت مع مدير المدرســـة .. كان علينا أن نمر أولاً على مدرســـة التعليم لينهي بعض الإجراءات ... ثم بعدها توجهنا إلى إدارة الجوازات ، دخلنا المبنى .. وقدته إلى المكتب ، هناك وقف أحد الموظفين : " أوه عقاب أهلاً ماذا جاء بك .. " واحتضنه .. وسلم على الموظف الآخر ... وقدم إليه زميله عبد الله . وسلّما عليّ ... وتخلى الموظف عن كرسيه ليجلس الأستاذ عقاب مدير المدرسة وتحدثا طويلاً عن انقطاع أخبارهما عن بعضهما البعض .

ثم قال الأستاذ عقاب : " يا فيصل لماذا تفعلون هكذا بالأستاذ ؟ لقد تعب وتعبت المدرسة كلها معه ... أين جواز سفره..؟ " .

جلس فيصل على طرف مكتبه في مقابلة زميله عبدالله واصدر صوتا ... وانطلقت ضحكة مكتومة من عبدالله ... وعيناه تنظران إلى أسفل المكتب ...

نظرت حيث تتوجه عيناه .... أوه ... هل ما تراه عيناي يمكن أن يكون حقيقياً ؟

هل ذلك هو جواز سفري الذي يثبتون به أحد قوائم المكتب لئلا يهتز ؟

وصعق قلبي ... كأني أقابل حبيبة طال انتظاري لغيابها .

وقلت له : " ها هو " ...

وهجمت على المكتب أحاول انتزاع جواز الســـفر ... من تحت المكتب الذي يجلس فيصل .. ونزل عن المكتب ورفعت المكتب وسحبته .... قبلته وأنا أصرخ أنه هو .. وكنت أقفز وأقول:

جواز السفر ..... جواز السفر .

هيا نضحك

كانت كلمة ولم ينسـاها .... كان ذلك منذ زمن بعيد وحفرها الزمن في ذاكرته لماذا يعيش الماضـي كله .... في لحظة واحدة . ها هو أمام مرآته شـعرات من الشـيب توشـــح رأســـه ... أخاديد من المرارة في وجه ... ها قد جاء الهرم إليه ... هكذا حدث نفسه أمسك نظراته وثبتها على عينيه .... ونظر إلى المرآة وكأنه يرى وجهه من جديد ... ياه هذا أنا ... هكذا حدث نفسه .

قرر يومها أن يغادر البيت ولا يعود إليه .... أخذ أشـــياءه الصـــغيرة ... دفتر مذكرات... قلم أُهدي إليه ... ولعبة صغيرة كانت أمه قد صنعتها له ، وظلت ترافقه طيلة العمر. ماذا لو انتهت هذه الحياة ... هكذا حدث نفسه .

طموحات وأحلام كثيرة داعبت خياله ... زوجة وأطفال وبيت ... لم تكن حياته سـهلة... حينما دخل السـجن لأول مرة كان عمره عشـرين عاماً ... وما زال يذكر كيف تلقفه المنظرون في الســـجن ... أحزاب وملل وتنظيمات .. وهو ماذا يدري عن كل تلك الفلسفات... كان يعرف أكثر منهم بلا فلسفات .... هكذا حدث نفسه ...

قضـى في السـجن خمس سـنوات وكانت كافية لأن تجعله يلتهم كل ما ورد إلى السحن من كتب مهرّبة وغير مهرّبة ... وبلا شك كانت سنوات صعبة ... في أول الأمر كان لا يريد أن يحادث أحداً وكان يقبع في زنزانته حتى أثناء السماح له بمغادرتها كان ينشـج . وكان يتذكر أمه ... كان يتذكر ثلاثة أشـقاء له .... كان يتذكر (مُنى) ... كان يبكي .... وكان يكف فجأة عن البكاء وينهر نفســه : أوه أنت تبكي كالأطفال ... السـجن للرجال ... أمي واخوتي سـيجدون ما يأكلونه ... مُنى إذا كانت تحبني سوف تنتظر .... هكذا حدّث نفسه .

ذلـك كلـه مر كحلم أخوتـه كبروا .... وتزوجوا وأنجبوا ... مُنى تزوجـت وابنتها أصـبحت عروسـاً .... وهاهو لا يملك إلا القلم ... والمذكرات ولعبة قديمة صـنعتها أمه ... قضـى عمره في السياسـة أو هكذا يسـمون من يهتم بأمور الوطن والمواطن في بلاده ... كان يقول ان هناك أموراً لا يمكن النقاش فيها ... وهي لا تدخل في السـياسـة ... ولا يقررها السـاسـة ولذا أصـبح أحياناً يعتبر متطرفاً ... وأحياناً متهوراً ... وأحياناً أخرى غير واقعي . ولذا قرر اليوم أن يصبح واقعياً ... لماذا لا تكون واقعياً إذا كنت تعيش في عالم المجانين ؟... وإذا كان الســاســة يشربون من نهر الجنون فلماذا لا تكون منهم ؟ ..... هكذا حدث نفسه...

ولم تكن هذه الخاطرة التي جالت في ذهنه .... إلا انعكاسـاً لمرآة مشـوهة رأى فيها نفسه ..... وأخذ يضرب الطاولة بيده بعنف وهو يصرخ لا ... لا ... أهو ذا الجنون بعينه أم هو الوعي أم هو الاغتراب .؟ هكذا ساءل نفسه ..

طرقات على الباب لم يسـمعها بادئ الأمر ، واشـتدت تلك الطرقات ، تقدم نحو الباب وفتحه .

– آه من أرى يا للمفاجئة ! منى ماذا جاء بك ؟

هكذا سألها ، ومشاعر غربته تجتاحه .

كانت تلبس وشاحاً أبيض .... وكانت خصلات من شعرها تنسدل على جبينها يتسرب بين ثناياها الشيب ... كانت صامتة وهو نظر إليها وكأنه يراها بصورتها قبل ربع قرن .. و تذكر أنه لم يقل لها تفضلي أه ... آسف ... أهلاً وسهلاً ... تفضلي ...

قالت : لقد اعتقلوا زوجي .... لا أعرف عنه شيئاً ... قلت أنك نمكن من خلال أصدقائك أن تعرف عنه شيئاً .

ودّ أن يقول لها أصدقائي ..... أي أصدقاء .... ولكنه تمالك نفسه واستغرب أن يكون زوجها معتقلاً .

الماضي تلك الشفرة الحادة التي لا ترضى لجراحه أن تلتئم كان زوجها يعتبر نفسه صديقه وكان يعرف علاقته بها ... كان أبوه تاجراً ثرياً ... يعد سنة من اعتقاله تقدم للزواج من منى ....لم تقبل رفضت مرة وأخرى، و لكن أهلها كانوا أقوى منها ظن ، رضخت وتزوجت ... كان هو الآخر تاجراً يتاجر بكل شئ .... حتى بالسياسة ...ولماذا يعتقلونه ؟ هكذا ساءل نفسه .

وسألها منذ متى اعتقلوه ؟ ...

قالت : الأسبوع الماضي ... أعرف أنك لا تستطيع مباشرة السؤال عنه ولكن – على الأقل– أصدقائك المعتقلين يمكنهم أن يخبروك إذا كان ضمنهم أم لا .

سألها بلهجة مستغربة أتعتقدين أنه معتقل سياسي هزت رأسها : لا أدري ....

غادرته وهي تقول له ستساعدني أليس كذلك .

لم يقل لها شـــيئاً .... لم يســـتطع أن يعدها ... كان يعرف كثيراً عن وزجها ... الرشوة.. التهريب وأكثر من ذلك .. جمع ثروات ضخمة وزوجته المسكينة لا تعرف شيئاً عن أموره سوى أنه يتاجر . ... كيف لرجل مثله كان له نفوذه يمكن أن يعتقل ؟ .. ولكن الفســـاد الذي بات الجميع يتحدث عنه في كل مجلس كان لابد من أن يدفع جزءاً من ثمنه شـــخص ما . إنه يســـتحقه ... هكذا حدث نفســـه .. ولكنه تساءل ... لكنه ليس الوحيد....

قرر أن يخرج . في البدء فكّر أن يذهب إلى المقهى ، ولكنه قرر أن يزور صـديقه القديم لعله يسـمع شـئياً عن زوج مُنى... اسـتقبله صـديقه مرحباً .. مرت ثلاثة أشهر لم يقابله بها ... هذه الأشهر كانت انقطاعه عن كل أصدقائه....

وقال له : علي هل سمعت عن الاعتقالات الأخيرة ؟.....

-نعم سـيصـدر بيان هام عنها في التلفزيون . لحظات وجاء المذيع ليقدم الأستاذ (س) ليلقي بيانه حول التطورات الأخيرة .

بدأ (س) بيانه بهجوم على الفســـاد الذي اســـتشـــرى ... على الرشـــوة والمحسوبية ... والتهريب .... والتسيب .... وقال هناك الذين ينسون أن يد العدالة أقوى ولن يفلت من قبضتها أحد ... وبعد البيان جاء نشيد حماسي .

وقال لعلي : هل سمعت ؟ وانفجر ضـاحكاً ضـحكة مدوية ... ثم قال وهو يشير إلى التلفزيون :

- انظر.. انظر من الذي يتحدث عن العدل ... والرشوة والتهريب .!

وقال لعلي : هل سمعت ؟ وانفجر ضاحكاً ضحكة مدوية ...

ثم قال وهو يشير إلى التلفزيون :

– انظر انظر من الذي يتحدث عن العدل ... والرشوة والتهريب .

وقال لعلي : الآن فتنم مرتاحاً يا عزيزي العدل اخذ نصابه .

شـــرب قهوته وخرج ، وأخذ يتنســـم هواء عليلاً . كان الجو حاراً رائقاً ولذعة من نسمات باردة تهب في هذا الليل ... تمر سيارات فتخترق صمت الكون الذي كان يلفه ... أخذ ينظر إلى السماء كان القمر مكتملاً ، ونظر إلى السماء قائلاً : يا الله .... جرد القوة من أؤلئك الذين يمتلكونها ويسيئون استخدامها.

ســـار طويلاً حتى هدّه الإعياء .... لم يكن يعرف أين تســـير به قدماه. وحينما قرر أن يعود إلى المنزل اكتشف أنه قد ابتعد عنه عدة كيلومترات .

تذكر منى وابتســـم , تذكر شـــبابها , تذكر كلمات الحب التي كان يكتبها إليها ولا يجرؤ أن يقولها لها .... وأحس بدفء يغمر قلبه .... حدث نفسه ... الآن زوجها معتقل ... تحاول أن تختلس العاطفة .... التي ليس لك الحق فيها .... وتخيل نفسه زوجاً لمنى ..... وكانت الفكرة قد بدت إليه وكأنها خيانة وحدّث نفسه :

– الآن زوجها معتقل تحاول أن تختلس العاطفة التي ليس لك الحق فيها .... ثم تساءل : أليس لي الحق حتى في الحلم .... الحلم ؟ . .

ليس لي ما أملك إلا الحلم .... هكذا حدّث نفسه .

حتى أصـــحابه ورفاقه الذين ناضـــلوا معه قالوا له أنت تحلم كثيراً ... كثيراً. وكانوا يجيبوه متى تكف عن الحلم تكف عن الابتسام ؟ ...

لماذا ؟ دعوني أحلم ... فأنا لا أتنازل عن الأمل دعوني أحلم...

أخذ يدندن بأغنية من أغاني أمه الفلكلورية القديمة ، والتي كانت أمه بصوتها القروي ترنمها أثناء انهماكها في عمل البيت .... وكان صوته في البدء مكتوماً , ثم علا قليلاً بحيث كان المار بجانبه قادراً على سماعه ...

ومع الليل البهيم , وانقطاع الحركة كان صوته واضحاً ونقياً, ولم يُعكر عليه غناءه إلا استماعه إلى خطوات ثابتة تدق الأرض دقاً...

توقف عن الغناء والتفت حوله لم ير أحداً ... ولكنه سمع صوتاً بأمره بالوقوف ... فتوقف .... كان شرطياً . .

تقدم الشرطي نحو وسأله بلهجة حادة : ماذا تفعل في وقت متأخر كهذا ؟!

-: ماذا أفعل عائد إلى منزلي قال له ذلك بلهجة مستنكرة.

قال الشرطي : من أي بار خرجت ...؟ سكران في منتصف الليل!.

قال عادل : مستغرباً سكران كيف عرفت ؟!

قال الشرطي : وجوه السكرانين لا تخفى عليّ هات بطاقتك يا مسطول.

أجابه والغيظ قد فاض منه : أليس على لسانك ألفاظ ألطف ..؟

قال الشرطي : أتريد أن تعلّمني الأدب يا حيوان .. هات بطاقتك ، وشده من سترته .

قال عادل له : ارفع يدك عني . .

وصفعه الشرطي صفعة على خده ... وبصق على الشرطي ... الذي استل عصاه من جانبه وانهال عليه ضرباً ... وأخذ يصفر بصفارته ...

حاول أن يقاوم .. ولكنه لا يعرف كم من الأيدي هي التي تلقفته .. أربعة ســـتة ثمانية .. لا يعرف ولكن زامور سيارة الشرطة آخر شيء تذكّره .

في اليوم التالي كان وجهه مليئاً بالجراح وجســده مليئاً بالكدمات .. كان موقوفاً في الســجن ... وهناك بزوج منى .. الذي اســتقبله قائلاً ليس معقولاً ... ماذا جاء بك هنا .. هل زجوك أنت أيضاً في قضيتنا ؟

قال له .. قضـيتك ... قضـيتي ... قضـيتنا .... القضـايا واحدة ما دامت قضايا ... المهم إنها قضية...

كانت منى بعد إصـدار البيان قد عرفت أين زوجها وقد سـمحوا لها بزيارته وهناك شاهدت عادلا ... شدهت ..

وسألته : وأنت ماذا جاء بك هنا ؟

وقال لها : جئت أبحث عن زوجك .

وانطلق ضاحكاً ..... ضاحكاً .. حتى ظنّ باقي المساجين أن به مس من الجنون ... وحينما توقف عن الضحك ، قال : هيا نضحك ما دامت قضيتنا واحدة .

1982/1/4

هو والفتاة

هل كان أحمد يدرك أنه مخطئ ... ذلك أمر لم يستوقف اهتمامه، ولا حاول مرة واحدة ان ينظر وراءه فيتساءل لماذا صنع هذا أو ذاك؟ ... وهل كان ما يفعله أمراً قميناً بالتجربة؟ ولكنه كان يؤكد ان ما يصـــنعه هو ما يجب أن يصـــنع .. تلك حاجته .. هكذا قال.

- أوه الحاجة! قالت له وهي مستغربة ... نحن نحتاج اشياء كثيرة وهل كلها يجب أن تلبّى ..!؟ الجنون بحد ذاته هو تلبية كل الحاجات الفردية...

–أوه أنت تتفلسفين كيراً .. هل تخصصت في الفلسفة؟

قالت له:

- أنا لا أفقه من الفلسفة شيئاً ولكني أعرف رغباتي أحياناً.. لي رغبات مجنونة ... أعرف أنها كذلك .. ولكن هل تنتظر مني أن ألبيها!؟.

– ولمَ لا ...

- أنت بلا شك تهذر .. هكذا أجابته ..
- نظر إلى عينيها الجميلتين .. وإلى شفتيها .. وقال لها كأنه يكتشف أمراً هاماً:

– أوه سيدتي أتعرفين بماذا أفكر؟

- ومن أين لي أن أدري؟ ... قالت ذلك مستنكرة..
- قال: أفكر بشفتيك كيف تم خلقهما بهذه الطريقة..؟
- ماذا أتسخر مني ..؟

– لا, أنا لا أجيد الغزل, ولكن أحب أن أنظر إلى شـــفتيك, وأنت تتكلمين تتحركان وكأنهما رقصات على أنغام موسيقية..

 أخفضت رأسها بخجل وبلا شعور أغلقت فمها واعتصرت شفتيها لعلها تخفيهما .. قالت له:

 ألا يعسكر في مخيلة الرجل العربي سوى جسد المرأة ..؟!

– أوه لا ... فماذا لو تحدثت عن باقي جسمك أظنك ستهربين ..

 أهرب .. أنا لســـت جبانة، ولا أنهزم. اعتدت على كلمات الغزل .. التي تبحثون عنها بعناية لتغرروا بها الفتيات ... أحفظ كليشـــيهات رسائلكم عن ظهر قلب .. أوه وأولئك الذين يتحمسون لهموم الوطن ســرعان ما ينســون كل شــيء حينما يلمحون طرف فســتان لامرأة جميلة..

– آه الحمد لله أنني لست واحداً منهم ..

قالت:

–وهذا أمر سيئ للغاية .. فأنت لا تمتلك شيئاً تعطيه قط.

ثم قالت : عن إذنك ... وانسحبت ..

لأول مرة يشعر بأنه انهزم أمام امرأة.

كان يبحث فقط عن المرأة .. عن الجسد.. لا شيء غير ذلك، وحاول أن يُعزّي نفســه "صــحيح أنها جميلة ..ولكن.. لماذا أتعب نفســي وأوجع رأســي معها بأحاديث عن السياسة وعن الوطن والأدب .. هذا النوع ليس عملياً .."

قام .. وقابله سامي هذا الشاب الذي يتحرك في داخل المؤتمر .. ينزل ويصعد .. يجري يتحدث مع هذا .. ومع ذاك, يناقش في الجلسات يتحدى.. يتبرع .. يصنع كل شيء يطلب منه ..

قال له : أهلاً أحمد ..

وقف سامي وصافحه .. ماذا جاء بك يا أحمد..؟

أجابه بغيظ : لنتعلم منكم ..

فرد سامي باسماً : العلم في الكتب .. ثم قال له: .. كم أصبح عدد النساء اللواتي دخلن قائمتك .. ثم سعى مسرعاً..

***

وقف أحمد عدوان في الصالة .. كان الفندق مزدحماً .. الفتيات اللواتي شاركن في المؤتمر كثيرات وهو يدرك أن هناك من الفتيات اللواتي حضرن خصيصاً بحثاً عن عريس ..

ولماذا لم يلفت انتباهه سوى تلك الفتاة؟..

ولماذا لا يحاول أن ينساها!؟ .. انه مجرد لقاء ثم يمضي.

ولكن هل شعر احمد عدوان بالإهانة منها .. ومن سامي.

مرت أمامه وركز عينيه على ساقيها .. كانا جميلين حقاً, وفكر هل كان معها الحق في ان الرجل لا ينظر إلى المرأة إلا بكونها جسداً؟

لم يسأل نفسه هذا السؤال من قبل, ذلك أنه كان دوما يبحث عن جسد المرأة ..

قال له سامي مرة :

– ألن تحرق مفكرتك هذه .. وهذه القائمة اللعينة التي تحتقر نصفنا الآخر .. يجب أن تفكر بأشياء لها معنى.

حين مرت نظر إليها, كانت تحمل أوراقاً توزعها, وتمنى أن تأتي لتقدم له ورقة منها فيحدّثها، وينظر إلى عينيها .. ولكنها تحاشـــته .. وأعطت الآخرين ولم تعطه ذلك البيان ..

يتذكر أنه لم يعن يوماً بقراءة البيانات، كان يأخذها باسماً ثم يطويها, ويضعها في جيبه, ثم يقذف بها دون أن يفتحها ... وأحياناً يقول لمن يوزعها شكراً لقد أخذت واحدة بدون أن يفعل ذلك .

ولماذا الآن تجتاحه هذه الرغبة في الحصول على هذا البيان. في هذا المؤتمر كان يحضر بعضاً من الجلسات ... يتفرج, يجلس دقائق ثم يخرج ويجلس ثانية ثم يخرج.

***

الآن بدأت الجلسة ... ووجد نفسه وحيداً في الصالة فتوجه إلى القاعة ... كانت غاصّة .. فلم يجد مكاناً, فوقف في نهاية القاعة سانداً ظهره إلى الحائط .. كان المتحدث منفعلاً .. أدان ... وشـــتم ... و.. و.. ثم أنهى كلمته معتذراً عن انفعاله.

وقف رئيس الجلســـة ليعلن فتح باب المناقشـــة .. رفعت يدها:- وحين أخذت في طرح استفسارها لتفند مقولات المتحدث رآها، كانت تتقدم مكانه بأربعة صفوف على يمينه.

أنهت كلامها وصفقت القاعة. وكان هو أول المصفقين لها .. وانفعل ولم يكتشف أنه بقي يصـــفق وحيداً وبحرارة, إلا حينما التفتت إليه كما التفت إليه الآخرون, فالتقت عيناه بعينيها .. وانسحب وكأنه يشعر بإثم خاص ..

***

خرج .. وتوجه إلى مقهى الفندق .. وطلب فنجاناً من القهوة وجلس وحيداً يدخن ..

أوه لماذا هزّته هذه الفتاة من الداخل هكذا..؟ لماذا يشـــعر الآن بأن حياته ليس لها معنى بدونها ..؟

وقال في نفسه اليوم سينتهي المؤتمر ... وستسافر وأسافر .. كل منا في طريقه .. ولن أتذكرها سترحل وسيرحل معها خيالها ..

- .. أوه أحمد عدوان لماذا تجلس وحيداً بماذا تفكر ..؟
- كان ذلك صوتها وكأنه طلقات رصاص أيقظته من حلم ...
- أنت أهلاً تفضلي ..
- ثم أردف بحماس حقيقي :كنت رائعة.
- سألته : في ماذا؟

-في كلمتك ..

حقاً.

- هذا ما أحسست به.

 شكراً .. فالمرأة تملك. ايضا رأساً كالرجل..

– أرجو ألا تسيئي فهمي ..

حاول أن ينتقل الآن إلى موقع آخر .. انه يشعر بحاجته إلى محادثتها أطول وقت ممكن، إنه يريد أن يكون قريباً منها .. أن تكون قريبة منه .. لماذا لا تكون له ..؟ هكذا فكر ..

سألته:

أحمد عدوان يا صاحب الرغائب والحاجات فكَّر جيداً كيف لو أن رغائبنا هي التي يجب أن تحكمنا .. كيف يكون مستقبل الوطن؟...

قال لها وكأنه يريد أن يعتذر عن سالف حديثه:

– أظن أن الرغائب مهمة في حياة الإنســـان, ولكن كيف نريد إشـــباعها, وعلى حساب ماذا ؟ هذا ما يمكن أن يؤخذ في الاعتبار.

"لم يفكر أحمد عدوان بهذه الطريقة أبداً ... ولماذا قال لها هذا الكلام, أحقيقي أنه يفكر بهذه الطريقة أو انه يريد أن يرضيها؟.

الآن وهو جالس معها يفكر كيف يمكن أن تكون له ؟

.. في البداية .. كان يفكر لمجرد إشـــباع رغبة عابرة. أما الآن فانه يفكر في أن يتزوجها.

ماذا لو طرح لها فكرة الزواج؟ هل ستضحك منه؟ .. وتضحك عليه؟.. زواج بهذه السرعة .. بهذه الطريقة .. لم يعرفا بعض وهما يفكران بطريقة مختلفة ..".

وقال لها:

أتمنى أن نظل على اتصـــال .. حوارنا لا بد أن يســتمر .. كنت أتمنى أن يطول المؤتمر لأراك أتحدث معك .. أريد أن نفهم بعضـنا. قد تكون المسـافة بعيدة .. ولكن يمكن ان نفهم بعضنا.

قال أحمد عدوان ذلك بلهجة صادقة .. وقال لها هل سنكون على اتصال ..؟.

قالت له آمل ذلك..

ثم نهضت وقالت له وداعاً .. الطائرة ستقلع بعد ساعتين ..

هكذا انسحبت وهي تبتسم.

وسارت وهي تقول : فكر بالرغائب وحاول أن تنساها..

لم تترك له فرصة ليرد عليها .. ولا أن يأخذ عنوانها أو يعطيها عنوانه ..

هكذا انســحبت. وقال لنفســه معزياً .. أوه حمد لله أنها انســحبت هكذا بدون عنوان وبدون صلة .. كي أنساها..

وحين ركب الطائرة كانت ابتسامة المضيفة ترحب به .. ولكنه كان يرى وجهها هي .. أوه لماذا تطارده! .. ولماذا لا ينساها لماذا لا يفعل ذلك؟!.

*****

جُمـانــة

جمانة ... جمانة ... جمانة

ذلك هو اسـمها .. أما هي فكانت تخطف الأبصــار ... جميلة مشـرقة المحيا دائما ... باسـمة تجري هنا، وهناك تطرح بسـمة، وهي حاضـرة النكتة، ولا تكف عن الحركة

هل قلت إنها كانت تخطف الأبصـــار .. كلا .. بل كانت تخطف القلوب، كانت طفولتنا مشــتركة في حارة واحدة عشــنا . ولم يفصــلنا عن بيتها ســوى جدار . نخرج إلى الحقل ســويا، أمســك بيدها ونركض، كنت أدافع عنها حينما تتشاجر مع الآخرين – كثيرا ما كانت تفعل ذلك.

حينما كبرنا، كنا نقرأ الكتب ســوية، ونتبادلها ... وحينما عرفنا العاطفة كنا نخط على الكتب التي نتبادلها أغاني الحب ، وكلمات حب مرتعشـة، ونرسـم قلوبا متشابكة.

كان ذلك من زمن بعيد وافترقنا.

* * *

جمانة ... جمانة ... جمانة

ها أني التقيها ثانية

أي صــدفة رائعة تلك، كنت قد ثرت حينما نســبوني إلى هذه المدرســة البعيدة. حينما تعرفت على الزملاء همس أحدهم قائلا ما زالت هناك زميلة لم تتعرف عليها بعد ... عليك أن تمتلك شجاعة لاستقبالها.

قلت له: ما سرها؟

قال: إنها كالنجمة ... جمانة ... جمانة ... هذا هو اسمها.

كان الزميل يجلس قبالة الباب في مواجهة الممر الرئيسي وأصوات حذاء نســـائي قادم .. مد الزميل رأســـه ... وقال بلهجة عاطفية:- إنها هي هي ... جمانة ... جمانة ... جمانة ...- هكذا هتفت حينما أقبلت.

هذه هي أنت ... ها نحن نلتقي ثانية.

ولم ألحظ بتاتا ماذا كان رد فعل زملائي لاستقبالي لجمانة، كانت تحمل معها صوفا لتغزل به قلت لها: أنت بينلوب ... ونظرت إلى يديها الجميلتين.

ضحكت وقالت ما زلت تذكر...

هل يمكن لامرئ ان ينسى أو يمل الانتظار.

حدثتني عن هجرتهم ... وكيف تشتت أسرتها ... وكيف عرفت مكانهم من المذياع ... وتكلمت بحب شديد عن عملها في هذه القرية.

الأرض ... لم أعد أراها في يديك ... قالت لي ذلك وكأنها

-أنت ابن الأرض ... أين الأرض؟.. هكذا سألت.

-أي أرض تعنين؟

لم تتمالك نفسها وهي تنطلق في ضحكة متصلة.

وقالت: الأرض هي الأرض التي جئت منها.

أطرقت مفكرا وسألت نفسي وهل هناك سوى أرض واحدة؟

حينما حدثتني جمانة عن الحب كانت لا تكف عن الضحك.

قلت لها:

أنت دوما تهزلين حتى وان كان الجد سيد المواقف.

اســتنكرت قولي ... هل الضــحك نقيض للجد؟.. هكذا تســاءلت، ولم تنتظر أجابني، فتابعت إذن فلنبحث لأنفسنا عن أماكن للاختباء.

قلت لها مستفسرا ماذا تعنين؟

أجابت: الاختباء من أنفسنا لأننا لا نطيق الحياة بدون ضحك ...

جمانة ... جمانة ... جمانة...

ها نحن نلتقي من جديد.

مر على ذلك سنوات كانت قد كبرت وشاخت بسمتها.

وقلت لها: ها قد جاءك الحزن مرة واحدة.

ابتسمت بسمة وكأنها مشدودة بثقل إلى شجرة.

كنت دوما تضحكين ... ماذا هناك؟. هل السنون تقتل الضحك؟.

صمتت وكان صمتها ... ليس إجابة.

قالت: وأنت لا أرى فيك آلا الحزن، وكأنه جاءك مرة واحدة.

-لأنني ابن الأرض.

ولم تبتسم ولكنها عقبت–ها أنت تعترف أخيرا.

-أعترف .. (قلت ذلك مستنكراً) الأرض ... أنا الأرض.

-هل أنت صوفي؟.. نطقت بكلماتها وكأنها تقذف رصاصة.

-أنا الوجد الصوفي ... هكذا قلت.

تهالكت جمانة على مقعد بجواري، وأخذت تذكرني بأسماء أشخاص ذووا مثل الورود، كانت تلك أسماءهم الحركية، ثم طلبت مني سيجارة واستغربت ذلك.

قلت لها: أتدخنين وأنت لا تطيقين رائحته؟..

غمغمت بكلمات وكان وجهها مليئا بالأسى وقالت:

-الأرض تعلمنا أن نموت ونحن لا نحب الموت، ولا تريدني أن أدخن وأنا لا أطيق رائحته!!.

ثم قالت ... ألا تعرف كيف تعلمنا الأرض الحزن. (وتابعت حديثها) لي جارة تدعى أم محمد، كان لها ولدان وابنة جميلة عمرها سبعة عشر عاماً .. وكانت عيناها بحيرتين وأنفها كجبال نابلس رقيقة حيية، وحينما اشتعلت تلك الحرب الملعونة ذهبت لتسعف الجرحى، أما الولدان فكان الأصغر قد استشهد في صد هجمات المعتدين ولم تبك أمه بحثت عن ابنها الأكبر لم تجده، حملت رشاش الابن الأصغر وسارت في الأزقة بحثت عن فتاتها التي تعالج الجرحى، ووجدتها.نظرت إلى عينيها البحيرتين فكانتا تغرقان في آلام لا تحد

قالت لها الأم: بنيتي هذا رشاش أخيك لقد ذهب وبقي الرشاش لم تجبها الأبنة بحرف واحد، ولا ذرفت دمعة، حملت رشاش على كتفيها ثم انطلقت نادى

عليها الطبيب لم ترد (ها هو الموت ها هي الأرض ها هو الإنســـان هكذا تمتم الطبيب) عادت أم محمد إلى بيتها وجدت ابنها الأكبر وكأنه على موعد معها.

-من أنت؟ سألت ابنها.

-أنا ابنك يا أماه قال ذلك مستغرباً سؤالها.

فتحدثت إليه معنفة مستنكرة، ابني لا يستريح آلا في حضن الأرض ... أتعرف أين أختك الآن؟!.

نهض محمد لم يقل وداعا .. ولا هي ودعته، وقفت ترنو إليه وهو يباعد خطوة.

حينما توقفت عن الحديث ... لم يكن في مقدوري ان أسألها وماذا بعد؟.

قالت أنظر هناك ... وأشـــارت إلى الســـماء، نظرت كان هناك طْيران يقتتلان أو يتعانقان في أعالي الجو.

قلت لها: انهما طْيران.

قالت: نعم لكنهما سيعودان ثانية إلى الأرض.

-وماذا يعني؟.

-أنظر إلى هذا الشـــيب الذي يغزو مفرقي، به يمكن ان ترى توهج العاطفة، لا بل انطفاء العمر، وهذان الطائران أرى فيهما مأساتي.

قلت لها: تتحدثين عن المأساة وأنت التي كان لا يعنيك سوى الضحك، سوى البحث عن السعادة .أغنية ... فستان جديد ... كتاب جديد...

قالت: بحثت عن ذلك، ولعلني أخذت منه أكثر من حاجتي، ووجدت إنني في النهاية كهذين الطيرين أطير وأطير وأظن نفسي قد حققت كل ما أحلم به، ولكن عند نقطة أظنها قمة الطموح تصطرع بي الدوافع فأرتد ثانية إلى الأرض، فأدرك ان بها البدء والمنتهى.

تتعقبني الأرض أراها شجرة زيتون، فأنمو بداخلها زيتونا... زيتا ... أوراقاً ... أغصاناً. تتعقبني الأرض، فتصطاد ني بذرة قمح أنبت فيها ... ليتني كأم محمد أستطيع اصطياد الأرض.

قلت لها (وأنا آخذ دورها في الضحك ذلك الدور الذي نسيته جمانة منذ زمن)

-ألست يا جمانة القائلة بأنني ابن الأرض ... وها قد جاءك الدور لتدركي أنك أنت أيضا من نفس العجين.

واستنكرت – أنا لست تراباً.

قلت: وما الفرق؟... هذا التراب هو النسغ الذي يروي عروقنا (وتذكرت حكاية روتها لي منذ مدة) أنسيت يا جمانة قصة الرماد؟.

قالت: لا، لا تذكرني.

قلت : أتخافين من الفقد...

أجابت: لا، لا أنا لا أكره الاستشهاد ولكن...

قاطعتها: أنا لا أريد تذكيرك بأم محمد وانما أريد تذكيرك بخالد ذلك الشـــبل الذي احتضـــنته طويلا، والذي لاحظ وهو في قاعدة التدريب كيف ان الرماد يخصب الأرض، فأصبح اسمه خالد الرماد.

واستشهد خالد، فزرع صديقه شجيرة تخليداً لذكراه ونمت نمواً عجيباً.

أطرقت برأسها وبصوت خفيض قالت: انك تثير الشجن وتحفر في قلبي الجراح.

قلت: إذن أنت لا تنسين..!!

-وكيف أنسى؟.

فعاجلتها: اذاً هل ما زلت تحبينني.

وكأنها صدمت: الحب؟! أنت ما زلت عاطفياً.

أجبتها: ألم تصفيني بأنني ابن الأرض؟..

ابتسـمت كما كانت بسـمتها منذ سـنوات بعيدة، ففرحت فأمسـكت يدها بيدي وكانت الأرض ممتدة وكنا نرنو إلى الأفق البعيد وكان لا يحجبنا عن رؤية نهاية الأفق سوى جبال مزروعة بالأشجار الحرجية وبالرجال والمدافع.

نـــَدى

مدخل: ((بطاقة بريدية))

حينما استلم بطاقتها وقرأ بعض الكلمات عليها، شعر برعشة سرت في كيانه. ماذا كتبت على البطاقة ليحصل له ذلك ،، سأل نفسه؟ ان ما صنعته لم يكن سوى أنها خطت خطا رصاصياً مرت به تحت كلمات مطبوعة على بطاقة، ولكن هذا الخط الرصاصي كان بالنسبة له خطاً عميقاً ومتصلاً ... هل يمكن أن ينبش خط رصاصي ذكريات عشرين عاما أو أكثر ... عن ذكريات طفولية ... مراهقة ومشاعر اختزنها في داخله عشرين عاماً ولكنها ظلت دوما معه. الماضي انبثق فجأة أمامه ... وليكن موضوعياً كانت دوماً في داخله ... حينما يتذكر بسمتها ويتذكر أشياء صغيرة بالنسبة له كانت تشكل ماضيا جميلاً ... وحلماً أجمل.

هل يصل الخط الرصاصي الماضي بالحاضر بالمستقبل ... في أعماقه يرى أن الخط الرصاصي هو خط لا ينمحي، وهو خط يربط حياته كلها بشكل عجيب، ولذا جلس وهو يستمع إلى الموسيقى، وقرر أن يكتب كلمات عن الخط الرصاصي بامتداداته.

* * *

1- ((قلم رصاص من الماضي))

قرع الباب ... فتحت أمها الباب ورحبت به ... وقف خجولاً بالباب، ماذا يريد؟ كان يريد أن يراها ... لم يكن هناك وسيلة سوى أن يذهب ليستعير كتابا منها .. قال لأمها انه يريد من (ندى) كتاب النصـــوص ... نادت أمها عليها ... جاءت بهية الطلعة على اســـتحياء كان لا يســـتطيع أن ينظر إلى عينيها الجميلتين ... وطلب منها الكتاب وأحضرته له، أخذه وكان لا يدري ماذا سيفعل به، كل ما هنالك أنه كان يريد أن يراها ... وكان يريد أن يقول لها ما لا يستطيع قوله ... كان يريد أن يخربش بقلم رصاصي على الكتاب كلمات تدل على مشاعره، أراد أن يرسم لها قلبا ... وفعلاً رسمه بقلم رصاصي ثم محاه ... لم يكن باستطاعته أن يقول شيئاً عن مشاعره أو يبوح بها ... كانت المشاعر والتعبير عنها بالنسبة لجيله هي جزء من المحرمات ... كان أبناء جيله يحبون من خلال النظرات، ويعشقون من خلال بسمات مسروقة ... من خلال كلمات لا تتعدى التحية ان تجرأ أحد المحبين قولها.

أما هو فكان يذهب إلى ذلك الشارع الرئيسي المؤدي إلى بيتها، وينتظر عودتها، كان الزي المدرسي الأخضر الجميل الذي ترتديه ... يخلق له عوامل من الفرحة حين يراها عائدة من المدرسة... وكانت هي دوماً مميزة يستطيع أن يعرفها عن بعد كيلومتر أو أكثر .. كانت مميزة بقوامها الرشـــيق وطولها الفارع ومشيتها الواثقة ومنديلها المتميز.

يذكر جيداً تلك المظاهرة التي اشـــتركا فيها، وحينما التقت عيونهما في تلك المظاهرة لم يكن يدري ماذا سيقول لها، ولكنه شعر بالسعادة لأنها تشارك

هل كان ذلك لأنه رآها؟ أم لأنه أدرك أن لها نفس المشـــاعر الوطنية التي لديه ونفس الاهتمامات؟ وعاد إلى البيت يومها متأخراً وعاد ليكتب كلمات إليها، قال فيها:

((ندى: أيتها العزيزة، ماذا أقول لك ... مشـاعر شـتى تغمرني ... مختلطة بين الحب والرضـــا والتمرد والغضـــب، ولا أجد ما أهرب به ســوى الكتابة ... أهرب منها لأستريح مع حلم كبير ولا أجد سوى عينيك الجميلتين وبسمتك المشرقة أبداً أيتها البهية أبداً.

حينما التقيتك في المظاهرة تدافعت إلى عقلي وقلبي أفكار ومشـاعر أين نحن من الوطن وأين الوطن منا ... أين يمكن أن تذوب مشـاعر المرء الفرد مع أحاسيس عاطفية جامحة مجنونة ... أحياناً أشعر وكأنني فارس يريد أن يخطفك ويطير بك في عالم له وحده، وأفكر للحظات وأكتشـــف جنوني ... هل لي أن احلم أنك معي وأننا نصـــنع بيتاً ... الوطن تعوزه الأحلام ولكن أين الوطن منا ... وأين نحن من الوطن ... بالنســبة لي أنت دوماً، العاطفة والرمز والحلم ... وكأنك أنت تجسدين الوطن ... أكتب لك كلمات ولست واثقاً إذا كنت ستقرئيها. ولكنني أشـــعر حينما أكتب أنني معك وأحلم وأنا أكتب إليك أحلاماً يختلط فيها الواقع بالجنون ... ولكنك دوماً تظلين يا بدية الطلعة، في القلب لحظة الفرح الحقيقي ... والأمل الذي لا أفقده.

أكتب إليك اليوم بعد المظاهرة ... وصـــورتك ما زالت في ذاكرتي وأنت تهتفين وتلوحين بيديك غاضـــبة مســـتنكرة ... ونحن كلنا في حماس من أجل الوطن ... قلت في نفســـي هل يمكن أن يكون لنا بيت في وطن حر موحد ... وكنت أنت الأمل ... والراية ... والوطن.

أن أحلم بك رفيقة درب، وقلباً كبيراً، ودفئاً حنوناً ومشـاعر عظيمة ذلك ما أملكه وأظل أتساءل هل أنت معي. هل تملكين نحوي نفس المشاعر أم أنك بعيدة عن كل ما أحلم به ... كلمة من حرفين بالنسـبة لي كانت تشـكل في حلمي ويقظتي جنونا بك وجنوناً لك ... [حب]

والآن هل أتركك ... وأنت قد لا تعرفين ماذا أكتب لك أو عنك.

إذن لأترك قلمي الرصـــاصـــي جانبا ولأطوي هذه الأوراق ... ودعيني أعيش معك في حلم يا ندى حتى وان كنت لا تعرفين عنه أيتها الفاتنة أبداً الجميلة أبداً البهية أبداً))

كانت تلك كلماته لندى انقضـى عليها سـنوات ولكنها جزء من الذاكرة وجزء من أوراقه القديمة التي لم يسـتطيع أبداً نسـيانها بالنسـبة له كانت هي أكثر من الماضي ... كانت أوراقه التي كتبها دوماً معه في ترحاله وما أكثره..

لقد كان عليه أن يفارقها حينما سافر لاكمال دراسته ... ولم يكن بمقدوره أن يقول لها وداعاً ... ولم يكن باســـتطاعته حتى أن يبوح لها بمشـــاعره لأن طبيعة العلاقة بين عائلتيهما لا تقبل ذلك ... سـافر وكان في قلبه سـرها وحبها ... الذي لم يعرف أحد به ... هل هي عرفت.! هل أحسـت به ... لا يدري ... ولكن كان عليه أن يعيش بعيداً ... ولم يلتقيا إلا بعد سـنوات، وكان يومها غارقاً في النشـاطات العامة، ولم تكن السـنوات قد غيرت فيها شـيئا ... ازدادت جمالاً وتألقاً ... وهزت مشـــاعره في لقائهما القصـــير جداً ... ولكن اللقاء ما كان ليتجاوز أكثر من التحيات، وســـافر كعادته دوماً، ويعود ليلتقي ثانية بها ويكون كل واحد منهما قد شـق طريقه ... وكان يراها قليلاً أو أنه كان يتحاشـى أن يراها لأنه يخشـى أن تنبش كل الماضـي في قلبه، وتمر الأيام ويلتقي بها بعد سـنوات

... ويظل منها على نفس المسـافة من البعد لأنه يشـعر بأنها بالنسـبة له أقرب من أي شخص كان ... لأنها في داخله.

هل نستطيع أن نهرب من الإسار الذي يطوق أعناقنا ... أهو القدر ... أم ماذا؟ وما دمنا نمتلك المشـــاعر ليس أمامنا من ســـبيل إلا البوح بها ... إن أعظم ما نمتلك هو هذه المشـــاعر التي بيننا والتي تهز أعماقنا، ان ما يشـــدني إليك لا أســـتطيع الفكاك منه , كنت أتمنى أن نكون معاً , ولكن ليس لنا ســـوى دفق العواطف وحرارتها ... هل أجرؤ على القول إنني أحبك أبتها النجوم الندية أبداً ...))

* * *

2- **((خط رصاصي لا ينمحي))**

كانت زيارة خاطفة ولكنه رآها ... وكانت جميلة كعهده بها أنيقة، بهاؤها يزداد يوماً أثر يوم ... قال لها يوماً ها نحن يا ندى نكبر يوماً أثر يوم وصـــمت ... وكأنه أراد أن يقول لها ((ولكنك تزدادين يوماً أثر يوم جمالاً بعد جمال))، ولكنه صمت وكان يكفيه منها بسمتها وذكريات عامة عن حياة مشتركة وظروف لحياة مشتركة...

حينما هاتفها قال لها:

- أنت ذات منزلة خاصة ولذا أشعر بأنك أعز من نصف أخوتي

*قالت له: ((بل أكثر منهم جميعاً.))

ان مشاعره ما زالت تتدفق ... وهي بالنسبة له لم تتغير وان بات يشعر بأن صلاتهما أصبحت أوثق ... صلته بها نضج المشاعر وعظمة الصداقة ودفء العواطف الصادقة.

ولذا فانه لا يستطيع أن يكتب لها أو يقول ما كان يجب قوله من عشرين سنة ... ولكنه يشعر أن خطاً رصاصياً على كلمات في بطاقة خاصة تهز كيانه ... وتعبر عن نضج المشاعر وعظمة الصداقة ودفء المشاعر، وقلم الرصاص الآن يقول ما يجب قوله ولكنه رصاصي لا ينمحي خطه ...

* * *

3- **((الخوف الكبير))**

ها هي بعيدة عنه، وصورتها لا تفارق خياله، يكتب لها كلمات خجلى وهو ينتظر ردها بلهفة ... وكأن رسالتها فيها الحياة الحقيقية التي ظل يبحث عنها في رحلة طويلة. ينتظر البريد ... وحينما يقرأ كلماتها التي تقول له: (ان كلماتك أسعدتني بقدر ما أخافتني، وأخشى التعود على شيء قد لا يكون من حقي ... أنا لا أجيد الكتابة مثلك ... ولكني قارئة جيدة، أنا في انتظار كل ما تكتب)، يكتب لها كلمات من قلب مترع بعاطفة كلمات خجولة، يدرك معها كل المحاذير التي تواجه مشاعره ومشاعرها, ولكن هل هناك وسيلة لكبح عاطفة عميقة تسري في دمائهما .. مع حياتهما .. هل يمكن أن تتوقف .. بل ولماذا تتوقف ...

ها هي تكتب له ثانية وتقول له: ((استلمت رسالتك اليوم بعد انتظار طويل، لا أدري ان كان فعلاً طويلاً أم أنني أشعر ببطء مرور الأيام لحين وصول شيء منك، كنت أخشى التعلق بك وأعلم جيداً بأن كل من حولنا سينكره، ها أنا فعلاً أنتظر بشوق كل كلمة منك ... فتأتيني كلمات قليلة لكنها أدخلتني دوامة أخشى الوقوع فيها لأنني أعلم جيدا أن الخروج منها ليس سهلاً

ها هو يبلغ في أشواقه لها منتهاها ... وهو يعترف أن القيود في الخارج وحواليهما تكبلهما، ويكتب لها: ((ولكن من يجرؤ على القول أن ما بداخلنا يمكن أن يكون ملكاً لأحد غيرنا.

هل نستطيع أن نتحكم به، هل يمكننا أن نتحكم في دفق الحب الذي يسير مع دمائنا في شراييننا ... أواه كم نظلم وكم نظلم فيما نعيش في عالم لا نستطيع معه إلا الاستسلام.

هل نستطيع أن نهرب من الإسار الذي يطوق أعناقنا ... أهو القدر ... أم ماذا؟

وما دمنا نمتلك المشاعر ليس أمامنا من سبيل إلا البوح بها ... إن أعظم ما نمتلك هو هذه المشاعر التي بيننا والتي تهز أعماقنا، ان ما يشدني إليك لا أستطيع الفكاك منه , كنت أتمنى أن نكون معاً , ولكن ليس لنا سوى دفق العواطف وحرارتها ... هل أجرؤ على القول إنني أحبك أبتها النجوم الندية أبداً ...))

* * *

1- ((الأمل))

- يهرب في خياله معها ... ها هي فتاة ناضجة، بل سيدة مكتملة البهاء يزينها عقل راجح وجمال هادئ وبسمة ساحرة ... حينما تتحدث بأسر محدثيها، لبقة، تعرف كيف تبدأ الحديث وكيف تنهيه.

وحينما يفكر في امرأة تحمل الأمل والحب ... يفكر بها ... وحينما يفكر بامرأة تحمل معها عبق الوطن والحلم الموعود يأبى أن تكون آلا هي...

هو يكتب ... ها هما يصـــلان الماضـــي والحاضـــر بخطوط من قلم رصاص وها هما يكتبان للمستقبل ... بخطوط رصاصية ... انهما يكتبان للأمل للأمل الذي يربط قلبين ... ومهما كانت القيود حولهما ... ومهما كانت آراء الآخرين فيما يكتبان ... فان ما يشـــدهما هو المســـتقبل حتى ولو كان مجرد كلمات الشوق التي تكتب من بعيد ....

* * *

5- ((الحلم))

تهتز مشاعره لها وبها وبكلماتها ... وهو يشعر بأنهما قد كبرا أو قل نضجا بما فيه الكفاية ... دفء المشاعر فياض ... وتأسره مشاعرها الرقيقة الشفافة ... وهو يشعر بأنها ليست له ... ولكنه يسمح لخياله أن يمسك يدها ويغفو إغفاءة ليحلم بها بين جفونه ... فتستريح بداخله مشاعره، وهو يأسرها بين جوانحه كياناً رائعاً لا يستطيع أن يكون له لحماً ودماً ... وإن كان يحلم في أحيان كثيرة بذلك ...

وهو يشـعر أن عليه أن يعطي من حوله السـعادة والبسـمة ... وعليها كذلك أن تفعل ذلك ... ويشـــعر أن كليهما يصـــنعان ذلك ... ولكن كم من الأمور التي عليهما أن يحافظا عليها ... أراه هكذا قال في نفســه ... إن الحياة ثقيلة ... أقدارنا أن نمنح السعادة لمن حولنا لأنهم جزء منا ونحن جزء منهم ... ولكن أين ســعادتنا نحن !؟ قال ذلك في نفســه ... وها هو يشــعر بأن كلمات مرتجفة يكتبها لها أو تكتبها له ... هي بالنسبة له خطوط لا تنمحي ... وتتجسد له أحياناً من لحم ودم فيستند على الصدر الحنون أملاً في سعادة يفتقدها ... ها

هو طيفها معه ... وتتداعى إليه الأصوات ... ها أين أنت لماذا تسرح بعيداً ... يســتيقظ من حلمه على جلبة أصــوات ومشــاغبات أطفال ... وتظل بســمتها الجميلة معه خيالاً جميلاً لمشــاعر لا تنمحي ... وأســطورة تســتحوذ على قلبه وعقله.

نوفمبر / 1987م

ريمـــــا

ريما ذات الوجه الأســمر .. والشــعر المنكوش .. والعيون المتحدية تلبس ســروالا أزرق ضيقا يكاد يحشر أجزاء جسدها حشرا ، وتلبس بلوزة سماوية اللون بنصف كم ، ينطلق صدرها منه انطلاقا ولكن ذلك لا يثير كثيرا إذا أنت حادثتها .

كانت الســماء صـــافية .. وكان باســتطاعتك أن تعد بعض النجوم المتأخرة في الســماء.. ولم يكن يحجب الشــمس عن وجوهنا شـــيء فتلفح وجوهنا بحرّها ، مع رطوبة شهر تموز .. وقابلت ريما .. ورفعت عن عينيها نظارتها الشمسية ، قالت :

- مرحبا بك ..

– أهلا

وقلت لها مازحا لماذا رميت نظارتك .. اتركيها لتحجب عني عيونك المتحدية .

- أنت تخاف .... هكذا قالت ..

– أحيانا .... أجبتها ..

قالت : إذن أنا أدعوك إلى الغداء على البحر .. وقد نجد فرصة للسباحة .

قلت لها : الغداء أقبله ولكن السباحة لا أجيدها .

هزت رأسها .. يكفي أن تستمتع بالبحر .. فإن مياهه تجرك إلى شطنا .. هيا بنا .

كان على كتفها حقيبة يد منتفخة بها مستلزمات البحر .

- ألديك سيارة ..

– يا ليبت .

- أتركب على طريقتي .. أوتوستوب .

– قلت لها لا أفضل هذه الطريقة .

- جربها ....

وقبل أن نناقش الفكرة .. أوقفت سيارة أجرة ، وانطلقت بنا إلى شاطئ بعيد ... به مطعم سمك .. ومسبح جميل .

كانت معروفة في ذلك الشاطئ .. عمال المطعم وموظفون وكثير من رواد المسبح يحيّونها .

سألتني :

- أتفضل الأسماك أو اللحوم ..

– ليس لي مزاج خاص في الطعام .

- إذن تأكل على مزاجي ..

ابتسمت وقلت مازحا :

– إذا كان حلوا .

ضحكت وقالت :

- ليس لي مزاج حلو إلا في الأكل ..

واختارت أنواع سمك وأوصت المطعم بتجهيزها .. ولم أكن أشعر حقيقة بالجوع ..

- قالت هيا إلى السباحة .

– ليس لدي لباس البحر .

قالت : بسيطة .. وجرّتني من يدي .. من هنا يمكنك استئجارها ..

- عن إذنك .. وانطلقت بخفة إلى غرفة استبدال الملابس ..

بعد دقائق التقينا عند المســـبح .. كانت تلبس مايوها أســـود من قطعة واحدة .. وظهرت به مفاتنها دفعة واحدة .. وحقيقة أنني لم أتمالك دهشتي بجمال جسدها ..

فابتسمت بعين راضية .. ووقفت على حافة المسبح . وغطست به وهي تشاور لي أن أقذف بنفسي .. ووقفت عند طرف الماء لأبلل قدمي بالماء ، فاقتربت كالسمكة ورشقتني بالماء .. وشعرت برعشة برد خفيف .. أخذت تقذف بي بالماء ثم تقدمت وجرتني إلى البحر.. كان شعرها المنكوش قد انسدل خصلا بدون ترتيب .. وباتت وكأنها جنية بحرية .

قلت لها : لا أعرف الســباحة .. قالت إذن .. ألا تريد أن تتعلم .. البحر جميل .. جميل ..

وتركتني في الماء أمشي وغابت في البحر كسمكة وعادت إليّ ورشقتني بالمياه .. دفعتني دفعة قوية كانت كافية لأن أقع بكاملي في البحر ، فقمت أتخبط وأنا أفرك عيني .

ماذا فعلت بي ، البحر جميل ولكن ليس للسباحة ..

- هيا استمتع به ..

لنخرج قليلا إلى الشاطئ ..

وجلسنا تحت مظلة كبيرة ، ولكنها فضلت أن تنام تحت الشمس بدون ظل ، بعد أن عالجت جسدها بأنواع من الكريم الخاص .. واستقلت على بطنها وكان رأسها في مقابلتي تماما..

قلت لها : لماذا لا تخفين هذه المحاسن .. وضحكت ..

قالت : .. أوه إنكم دائما تنظرون إلينا كأجساد ..

قطّبت جبيني .. فلم اقصد ذلك أبدا .. ولكنها كانت جميلة..

فقلت لها : ماذا تظنين لو أن الرجال لم ينظروا إلى المرأة بمنظار الجمال ... كم هي ستفقد وكم هو سيخسر .

قالت : باستغراب .. حقا ولكن .. الجمال ليس مظهرا فحسب .

هززت رأسي .. نعم .. وعلينا أن نعرف كيف نستمتع بكل أنواع الجمال في الدنيا ..

ابتسمت وقالت : أو تظن أننا قادرون على ذلك ؟....

قلت لها : أنا شخصيا أحاول وأحاول أن أقنع نفسي بأنني أتمتع بالحياة كما يجب ، ولكن أجد نفسي دائما فاشلا .

مر بائع مرطبات من جوارنا .. ولم أسألها تشربين ماذا ، ناديت عليه وطلبت منه زجاجتين.

أخذت الزجاجة ووضعتها على شفتيها ثم رفعتها .. وقالت صحيح من قال لم أني أريد أن اشرب بيبسي ؟ .. ولماذا اخترت أنت لي .. يا لك من ديموقراطي ! ...

وضحكت وقالت : لحسن حظك أنني أحب البيبسي كثيرا .. وإلا ..

وأمســـكت الزجاجة بيدها وأمالتها نحو رأســـي لتوحي بأنها كانت ســـتدلقها على شعري..

وقلت لها : هل أنت عدوانية إلى هذه الدرجة ؟..

قالت : يكفي ما قضيناه من عمرنا ونحن ندافع .. ألا تظن أن دور الهجوم قد حان ؟.

أوه أن نهاجم يا له من حلم جميل للمظلومين .

جرعت نصف الزجاجة في جرعة واحدة طويلة ، فلاحظت استغرابي .

وقلت لها لا بدد حرجها ..لماذا أنت عجلى هكذا .

قالت أشعر بأن حياتي قصيرة .. ماذا أجرع ، استمتع به جرعة واحدة من يضمن لي حياتي غدا ؟..

أوه ما هذا التشاؤم يا ريما .. أنت بحيويتك ونضارتك تمتلكي الحياة والأمل ..

قالت : لا .. أشعر بأن حياتي قصيرة .. وأنها كان لا بد أن تنتهي منذ ذلك اليوم .

أخذت تتمتم :

أشــعر بأن حياتي قصــيرة .. وأنه كان لابد أن تنتهي من ذلك اليوم .. وأغمضــت عينيها .. وقالت وكأنها تحلم .. منذ ذلك اليوم

قلت لها مستغربا : أي يوم ..

وهزت رأسها وكأنها لا تريدني أن أسأل ، ولا أن تقول شيئا ، ثم قالت :

- لا ، كان لابد أن أعيش لكي يكون لموتي معنى ..

– لست أدري لماذا تحملين كل هذا التشاؤم على كتفيك ..

أنت تتحدثين عن الموت .. لماذا .. هل تفقدين متعة الحياة ؟.. متعة الرغبة فيها على الأقل؟.

- متعة الحياة ...

وابتسمت ..

قلت لها :

– نعم من يراك يظن أنك مرحة مقبلة على الحياة بكل ما فيها من متع ..

- ياه حتى أنت .. تظن كذلك !! .. صحيح أنني أضحك .. أروح عن نفسي .. أسبح .. أذهب إلى البحر .. ولكن هل تظن ذلك متع الحياة ؟.. ما هي متع الحياة في نظرك ؟..

– في نظري (قلت وكأنني لم أتوقع أن تسألني) .. آه متع الحياة لعلها راحة الضمير تحب .. تسعد من تحب ... تقضى وقتا تشعر به رضا في النفس معها ... تقضى وقتا غير ممل في عمل .. في جلسة مع صديق .. في أداء خدمة .. في قراءة كتاب .. في سماع موسيقى .. لعل تلك هي متع الحياة .

قالت :

- حب ... عمل .. كتاب.. موسيقى .. رضا في النفس .. آه حقا لعل فيها متع الحياة ولكن أتدري .. ماذا يجري معي ؟..

قبل أن ألتحق بعملي هذا كنت أبحث عن معنى للحياة .. لم أكن أتخيل كيف ستسير الأمور معي ... لقد فقدت أمي و والدي في غارة الطائرة ... كنا منذ هجرتنا نعيش في مخيم ... وتساقطت على المخيم القذائف.

كانت مدرستنا لا تبعد كثيرا ... عن طرف المخيم ... حينما استمعنا إلى القذائف تتهاوى على المخيم وعلى أطرافه ... شعرنا بالرعب الحقيقي توالت الانفجارات ... وكان أحدها بالنسبة لي ... رهيبا ... شعرت وكانة أصاب أحد أطرافي دويّ الانفجار في أذني...

فصرخت لحظتها ... فاقتربت مدرّستي وهي تخفف عني قائلة ما بك يا ريما ... هدّئي من روعك ... هذه قذائفهم تعودنا عليها ... صرخت لا .. لا .. وخرجت مفزوعة اركض من الصف ... والمدرّسة تنادي .. لا ..لا تخرجي يا مجنونة ... القذائف تتساقط وقد تصيبك شظية ....

في آن واحد التقيت بأخوي في زقا ق من أزقة المخيم وكانا يركضان .. صرخت عليهما توقفا وهما مرعوبان ... ولأول مرة أرى في عيونهما الرعب ... وأخذت اركض معهما ...

بيوت كثيرة انهارت ... ولكنها لم تلفت انتباهنا ولم نهتم كثيرا بمن أصيب وماذا جرى وكأن الأمر لا يعنينا .

ومن على طرف زقاقنا ... توقفنا للحظة مستمرين .. أين بيتنا أين أمي .. أين أبى...

وركضت مجنونة اصرخ أمي .. أبى ..

آه .. كيف اصف لك ما شاهدت .. أخذت تبكي ..ماذا أواسيها ... لم أجرؤ على المواساة ... ولا على الحديث ... أطرقت برأسي ...

ثم قلت بعد هنيهة ريما .. لقد ذهبوا وبقينا نحن ... ليس بيدنا الخيار الآن سوى أن نحيا ... وإذا كان بمقدورنا أن نصنع من أجلهم شيئا ومن اجل الوطن فيمكن أن نهب حياتنا له ... هذا كل ما نقدر أن نصنعه .

علينا أن نعيش حياتنا .. أن نصنع الحياة بأيدينا .. نقاتل من اجل أن نعيش نعم نتزوج لننجب أطفالا .. نعم .. أوه هيا كفي عن البكاء .. ليس أمامنا إلى الابتسام ...

لنصنع الحياة .. قلت لي أن دورنا في الهجوم قد ابتدأ ...ها ولماذا أنت تتراجعين الآن؟ ...

لم تنتحبين ؟

: أوه ماذا تقول ... أتراجع ... لا أبدا ... ولكنها الذكرى .

إذن ابتسمي : هيا ...

واغتصبت بسمة من حزنها اغتصابا ...ومسحت دموعها بباطن كفها ... ثم قالت عصافير بطنك تغرد هيا إلى الغداء .

زهـــراء

لم تكن زهراء قد قررت شيئاً ما ذا أهمية بالنسبة لترتيبات الزواج...

تساءل هاني: لماذا نؤخَر الزواج يا زهراء ؟...

ولم تقل له شيئاً ... سرحت وتتابعت الصور في مخيلتها ... نعم لماذا لا نتزوج ؟، ولماذا نســـتيأس من حياتنا ما دمنا تمتلك إرادة الحياة؟... أوه أية حياة هذه التي يجب ان نعيشها ونحن لا نعرف مصيرنا فيها بعد غد...

قالت له:

*وماذا عن المستقبل ؟.

قال لها :

-المستقبل ! نحن المستقبل نصنعه بأيدينا...

كان هاني يطارد كل كلمات اليأس التي تستعبد زهراء...

زهراء التي قليلاً ما تتحدث ... وقليلاً ما تبتسم ... كيف دخل هاني إلى قلبها .. وكيف دخلت إلى قلبه ... إنها جميلة ... ولكن من لا يعرفها لا يكاد يتصور ان لها لساناً تنطق له أو شفتين تبتسمان.

أول مرة خرجا معاً لم تكن تلك النزهة مُرتبة ... كان هاني قد جاء ليحدث طلاب فصـــلها .. وكانت تســـتمع إليه ... وحينما انتهى الدرس كان وقت الرواح

حان .. خرجا من الفصل وهي تناقشه فيما حكاه الأطفال وهي تتصور ان ما قاله ما كان يجب ان يقال ...

تابعا الحوار وهما يمشـــيان ... ثم قال لها: ما رأيك لو نجلس في مكان نتناول به شـــيئاً من المرطبات ونتحدث؟ ترددت ... ولم ينتظر جوابها وجذبها من يدها ... ودخلا مطعماً واختارت زاوية قصية بعيدة عن الزبائن ولغطهم.

سألها: أتحبين العزلة ؟...

قالت: أحب الراحة...

-أراحتك في العزلة؟..

*أوه الراحة ... يا ليت العزلة تحققها ... رأسي به دوي من أشياء تتصارع ... الناس ... التقاليد ... المســـتقبل ... الثورة ... الأجيال الجديدة ... أوه ماذا أقول لك.

-انك تحملين جبلاً على كاهلك .. خففي عن نفسك.

*أبحث يا هاني عن الخلاص.

– الخلاص انه في الحب.

قال ذلك بلهجة صادقة..

*الحب ... أي حب!!

قالت ذلك مستفزَة

-الحب ... تلك العاطفة التي تصنع للحياة وارادتها...

*وهل تظن ان ذلك يصنع الراحة ..؟

-ألم تجرَبي الحب ...؟

احَمر خدها ... وارتبكت ... وقالت له: هيا بنا،

أشـــار إلى الطاولة وقال: لننتهي ممَا أمامنا ثم نذهب ... آســف إذا كنت أزعجتك ... بسؤال قد يكون شخصياً...

لم تكن زهراء قد أحبت وكانت نســـخر من صـــديقاتها، وهن يحدثنها عن الحب ... تكررت لقاءاتهما ... وقد اصـبح ذلك جزءاً من برنامج روتيني ان يسـيرا بعد انتهاء الدرس ليلتقيا في ذات المكان .. على نفس الطاولة إذا كانت شـــاغرة . وحينما قال لها بعد شهرين من لقاءاتهما...

-(زهراء .. اني أحبك ..) احمر وجهها وأطرقت إلى الأرض .. ولم تجبه.

وقال لها:

-زهراء أليس لدينا الشـجاعة هي ان نُصـرح بعواطفنا تمتمت وهي سـارحة النظرات: بلى ... بلى.

بعد ذلك اللقاء ... كان كل شـيء أصـبح واضـحاً ... عواطفهما بلا خجل تنطق من جلستهما ... من مشيتهما معاً...

وزهراء تلك الفتاة الخجولة التي لا تنطق شفتاها ... كانت تمسك بيد هاني في الشارع وسألها مرة:

-ألا تخشين من كلام الناس ؟...

أجابته:

*لا لم تفهمني يا هاني ... أنت تحاول التغيير كتاباتك، قصـــصـــك، أحاديثك الأطفال، أدرك كم هي هامة .. ومفيدة في صنع جيل التغيير ... أما أنا فلا أريد ان أصبح مجرد ديكور بيتي لا يجيد سوى المطبخ وتفريخ الأولاد ... أريد أن يكون لي دور أخر ... في الداخل أشـعر باحتراق ماذا أقدم ... أنا .. أنت ... الآخرون .. الذين يتحدثون يخطبون .. يكتبون .. ماذا نقدم أمام الشـهيد .. تتناثر أجزاء جسده شظايا ماذا نقدم كيف أشـعر بالراحة ... أريد ما يطفئ لهيب روحي المستعرة ... هل أنت قادر ان تخلصني من ذلك اللهيب ... هل الزواج قادر على صنع الخلاص.

-زهراء ... هذا الذي يحرقك ... يحرقني أيضـــا ... نعم كيف يمكن ان نحقق آمالنا ... ليس هناك خلاص حقيقي كالاسـتشـهاد ... ولكن هناك فرق بين الانتحار والاستشهاد ...

أنا مثلك أؤمن أن قطرة دم تســـيل هي المعبر الحقيقي للتطهير وللتحرير لتطهير الذات وتحريرها وتحرير الوطن . ولكن أســـألك ... هل نموت من أجل الخلاص ... فحسب ؟... هل الاستشهاد هدف في حد ذاته ... ان نصنع الحياة التي نريدها حياة القوة والعزيمة. ليست حياة الهروب منها لخلق الراحة .... لا أريد ان تضـــعفي .... التغير نعم أنت وأنا والآخرون نصـــنعه بالتضـــحية وبالمواجهة. لماذا أنت تهربين؟...

التقيا أكثر من مرة بعد هذا اللقاء ... وتحاشـــى أن يذكر لها ثانية مســـألة الزواج ... ولكنه كان يشـعر أن ذلك لا بد ان يحصـل إنها تحبه وهو يحبها ولا بد ان تتخطى عقبات نفسية تعترضها .... ولم يستغرب بعد ذلك حينما قالت له:

*هاني متى نتزوج ...

ابتسم وقال لها:

-إذن قررت أن نصـــنع الحياة معاً، ان نواجه ... ان نتحدى قالت: ذلك القليل الذي نُقدمه...

*اني احبك، وهذا يكفي لأتحدى العالم.

واستطردت قائلة:

*ان مشــاعرنا لا ينمكن ان تقبرها ألســنة الناس التي لا تلوك في الغالب آلا مالا يعنيها ....

حينما عرض عليها فكرة الزواج ... قالت له: الزواج لا، لماذا تفكر هكذا ...؟

اســتغرب هاني ... لم يكن يدور في ذهنه ســوى ســعادتها ... ولقائهما المســتمر ... ولكن لماذا ترفض الزواج ؟... اســتغرب هاني هذا كيف لفتاة ان ترفض الزواج من حبيبها ... وحينما ناقشها ... انخرطت في البكاء قائلة:

– أنا أحبك وأريدك ... ولكني اشــعر بأن ســعادتنا ليســت في الزواج ... الخلاص هو ما أبحث عنه.

قال لها:

– الخلاص الخلاص دوما تتحدثين عنه ... ولكن كيف ترينه ..؟

– لســـت أدري علينا بتغيير كل العلاقات المزيفة التي تربط بين الناس. الابتســامات الكاذبة، الحماس المزيف الذي يغلف بعض أدعياء الثورة ... أشــعر بأن الخلاص بالتغيير.

البيت المهاجر

يقع بيتنا في منتصـــف البلدة . كان البيت ريفيا جميلا . غرفة واســـعة وتستقبل نوافذه من جميع الجهات أشعة الشمس مع شروقها ومع غروبها.

كان الجميع يتحدث عن بيتنا بإعجاب ويسـمونه البيت الكبير ، كان قديما جدا ورثه أبي عن جده . وحكت لنا جدتنا أن هذا البيت كان لجد جدها .. بل وقالت أن مكان هذا البيت كان بيت جدنا الأول الكبير.

كان بجوار بيتنا بيوت أخرى قديمة لا تقل قدما عنه وان كانت أصـــغر قليلا ولا تتمتع بمثل جمال هندسته العربية الأصلية.

بدأ الثراء يعم أهل البلدة وبدأت عمارات حديثة تقام . أولا بدأوا في بناء العمارات في الأراضـي الخلاء . وحينما ضـاقت الأراضـي على العمارات بدأ أولئك الأثرياء في شراء البيوت القديمة وإقامة عمارات شاهقة مكانها..

أما بيتنا فقد ظل صـــامدا في مكانه .. ولكنه بدأ يشـــكو من الاختناق ، وطغيان العمران عليه ، الذي أصـبح يسـد عليه الأنفاس، ويحول دون أن يسـتمتع بمناظر الطبيعة التي عاش بينها سنوات.

وفي يوم من الأيام سمعت حديثا يدور بين بيتنا والبيت المجاور :

قال بيتنا : آه لقد ســـئمت هذه الحياة أن ما يجري الآن هو اغتصـــاب لحريتنا ولاستمتاعنا بالطبيعة الرحبة الجميلة .

قال البيت المجاور : أشـــعر بالغربة بين هذا العمران المغرور بارتفاع بنيانه الذي أخذ يحتل مواقعنا .

فأجاب بيتنا : نعم ولكن هذا ترابنا وهذه أرضــنا ونحن لن نكون غرباء مهما حاولوا تغيير وجه المنطقة .

رد البيت المجاور يائســـا : آه لقد ســـئمت .. أريد أن أهاجر إلى الريف هناك ، اسـتمتع إلى تغريد العصـافير ، واسـتمتع بنسـمات الهواء العليل ، وصـفير الرياح الجبلية ، وبأشـــعة الشـــمس التي تغمر الكون بدون أن تحجبها كتل الإســـمنت الصناعية .

استيقظت في وقت متأخر من الليل على صوت جلبة وضوضاء .. قلت لنفسي ما هذا الإزعاج في منتصف الليل .. نهضت وارتديت ملابسي .. وخرجت لأرى ماذا يجري وأذهلني منظر البيت المجاور .. رأيته مرتديا عجلات ضـــخمة ، ويتحرك على الطريق العام باتجاه الريف .

وودع بيتنا قائلا له : وداعا وإذا أردت أن تراني ســـتجدني في الريف ، على تلة هناك، استمتع بصوت الطيور وبأشعة الشمس وبالهواء العليل .

وبكى بيتنا وهو يودع البيت المجاور .. وهو يرجوه ألا يغادر موطنه .

ذهبت بعد أيام لأرى ماذا حل بالبيت المجاور . وجدته على ربوة عالية ولكن منظره كان غير منسجم مع البيئة التي حوله . ولكنني وجدته سعيدا .

وحينما رآني سألني عن بيتنا ...

قلت له أن بيتنا يبكيك كل يوم .. ولكنه يقول أنك ستعود مهما طال الغياب.

وقلت له وأنت حدثني عن أخبارك .

أجابني فرحا : يا لجمال المكان أنام كل يوم قرير العين لا ضـجيج ولا ضـوضـاء وأستيقظ مبكرا على صـوت الطيور وتغريدها .. وتتسـلل أشـعة الشـمس إلى داخلي فلا يعترضها سور ولا عمارة شاهقة .. وأعيش في مرح حقيقي ...

وقال لي بلّغ بيتكم أشواقي وتحياتي وقل له أن يزورني هنا.

عدت إلى بيتنا وتحدثت له عن البيت المجاور ونقلت له تحياته . إلا أن بيتنا قال لي بحكمة الشيوخ :

– إن البيت المجاور مأخوذ الآن بسـحر الطبيعة وجمالها ، ولكنه غدا سيسـأل عن رائحة الوطن فيستوحشه .. أقول لك أنه سيعود نعم لن يطول به المقام سيعود حتما .

مرت أسـابيع فيها بدأت بعض البيوت القديمة تتسـاءل هل البيت المجاور سـعيد في مقامـه الجـديـد ؟ وأخـذت بعض البيوت تفكر في الرحيـل .. ولكن بيتنـا وقف في وجوهها .. قائلا الرحيل معناه الموت لا تغرّنكم السعادة الزائفة بعيدا عن الوطن .

كان بيتنا القديم مصـيبا كان لديه حكمة القرون .. ففي ذات يوم سـمعنا ضـجيجا كان البيت المجاور قد اقترب من مدخل بلدتنا .. وأخذت البيوت القديمة تنظر إلى القادم بفرح .

والبعض قال أنه عاد لزيارتنا لبعض الوقت .

والبعض الآخر قال لا أنه عاد إلى موقعه ثانية .

وآخرون قالوا سنعود معه .

أما بيتنا القديم فقال أنه عاد إليكم ولن يغادركم .

وصـــل البيت المجاور إلى مكانه وحيّا جميع جيرانه وبثهم أشـــواقه وبدأ يحكي لهم عن تجربته ، إذ قال :

كنت ســـعيدا في أيامي الأولى ، وقلت لنفســـي هيا اســـتمتع بهذا الجمال والهدوء والطبيعة الســـاحرة ، ولكن الأيام مرت وأنا أزداد شـــوقا إليكم .. أصـــبحت ذكرياتي معكم تؤرقني ، وخاصـة حينما يحل الظلام فاشـعر بالوحشـة القاتلة وكنت أفكر بكم في مثل هذه اللحظات أتذكر ســـهرنا بعضـــا مع البعض الآخر ، وأتذكر ضـــحكنا وســـمرنا وقلت لنفســـي كيف تعيش بعيدا عن وطنك وأهلك ؟... وها قد عدت إليكم لأعيش معكم .

قال بيتنـا أهلا بك أيهـا البيت المجـاور خير جـار في خير دار.. وانطلق الجميع يغنون فرحين ، وأحيوا له حفلة سمر شهدتها كل البيوت .

سحـر يوم ربيـعي

كان يوما ربيعيا جميلا ، جماله لا يقل عن جمالها ، وهذا اليوم اسـتيقظ باكرا وقبل ان تبدأ العصـافير يومها ، ليعانق غناؤها روحه العاشـقة .... قال لنفسـه في هذا اليوم الجميل هل يمكن أن أراها . حين سـمع صـوتها شـعر بأنه امتلك العالم وقال في نفسـه مع هذا الصـوت عائدة لي حياتي ، ها هو الربيع الحقيقي يعيشـه مع صـورتها وها هي صـورتها الجميلة وحديثها العذب يجعلانه أسيرا ... لماذا لا يراها كل لحظة ، ولماذا لا يسـمع صـوتها كل آن ... هل يمكن أن يعيش هكذا بلهفة التشـوق ... ينقضـي اليوم بعد أن يراها طويلا طويلا ، ولا يكسر ملله ألا إذا سـمع صـوتها فيقول لنفسه مع الصوت هاهي حياتي عائدة لي .

تستقبله باسمة ويتساءل هل يمكن أن تشـعر هي به كما يشـعر بها ، ويسـألها عن كلمات كتبها فتقول له موافقة على ما كتبت ... ولكنه يريد أن يعرف منها ويقترب أكثر، ولا يقوى على الانفكاك من أسـرها ، وهاهي الأوراق بيدها ترتجف وتقول له هذه هي أوراقك ... هذه لحظة يتخيلها فيهوى قلبه .

كم هي رقيقة وعذبة وحساسـة ، يريد أن يكون معها بكل مشـاعرها وعقلها المتفتح وذكائها وجسـدها المتوهج بالحياة ، حينما ينظر إلى عينيها لا يسـتطيع أن ينظر طويلا لأنها تنفذ إلى أعماقه .حينما التقيا معا لم يسـتطيع ان يبوح لها بأحاسـيسـه أكثر مما كتب لها ، ولكنها بكل تأكيد تدرك عمقها ، أمسـك بيدها بين كفيه ، لعله أراد أن يصل بين قلبيهما ، كان اليوم ربيعيا جميلا وكان جماله يلتقي مع جمالها ، شـقائق النعمان والأزهار الربيعية تغمر المروج التي تتناثر هنا وهناك بين العمران .. ولكن جمالها الربيعي فيه سـحر، كان جمالها رائقا ، وهو يعطي الربيع بهاء ،

في عينيها يشعر بكلمات جذلى ولكنه يريد أن يسمع منها كلمة، ولكنها لا تقولها له ... ها أنت تقسي علي لماذا يا سحر حياتي تجعليني أهيم وأبحث عنك في عالم لامتناه من الحيرة والأمل .

الربيع سحر، وأنت سحري الذي بات يؤنس وحشة الحياة المملة بدون أن أراك أو أسمع صوتك ...ها هو لا يهاتفها ليوم واحد وهو يشعر بأنه يهرب من قدره، ولكنه يكتشف أنها السحر بعينه ، لا يرى اللحظات الصغيرة التي يسرقها من بين أنياب الزمن ... ويشعر أن الحياة الحقيقية أن ينغمسا معا ... ها هي تحل في أعماق القلب لتعطي معنى لحياته، وتكون حياته هي حياتها، يغمر أنفاسه بأنفسها ويندمجان معا في لحظة حب أبدية .

حينما قالت له باسمة وكأنها تريد أن تختبره ، صف لي هذه اللحظة بكلمات ثلاث ، لم يفكر طويلا وقال لها :

– أنت يومي وغدي . ومهما قمت بترتيبها فهي تظل الوصف الحقيقي ، فأنت الربيع الذي تنبثق منه الحياة ، وجمالها .

يأتي العيد وأنت تبعدين عني فيه ، ولكن بهاءه يكتمل بك ... كيف يمكن للمرء أن يسترد أنفاسه والشوق يغلبه . إنك جميلة وأجمل ما فيك النضج والذكاء والاكتمال ، ويشعر بأن الحياة معها تصبح أجمل ، ماذا يمتلكان سويا؟

هكذا سأل نفسه، واكتشف أن بينهما أسرارا صغيرة ، تجمع بينهما ، وهذه الاسرار كيف يمكن أن يخفيانها ؟

هل يمكن أن يقول أن ما يجمعه بها ليس سوى لقاء الصدفة ؟

هل يمكن أن يقول للآخرين أن ما يجمعه بها ليس سوى المجاملة ...؟

هل يســـتطيع أن يخفي مشـــاعره ؟ كيف يمكنه أن ينكر اللحظات الجميلة التي يسرقها من عمر الزمن حينما يتحدث معها لينتقل إلى عالم السعادة؟

ولكن هي ماذا تقول عنه ؟ ماهي حقيقة مشـــاعرها نحوه .؟.. هل يســـتطيع أن يعرفها ؟ هل صـحيح أنه بالنسـبة لها اختيارها ؟ وماذا ترى فيه إنسـان رومانسـي تكبله الحياة بأغلالها وتكبلها هي كذلك ؟

ولكن هل يمكن لهما أن ينطلقا بمشاعرهما ليعبرا عنها بعيدا عن الأسرار؟

هاهو ينتظر بلهفة لقياها، وينتظر أن يمسك يدها ليشعر معها بالأمان، ويلثم يدها ويضـــمها إلى صـــدره فتكون معهما ســـعادة الحياة وروعتها... هاهي تحادثه وهو يعرف أن حديثهما هو اختصـــار للمســـافات وهو يعرف أنها قوية وذكية ومثقفة ، وهذا ما يعجبه فيها أكثر من أي شـــيء آخر ، وهو يعرف إنها جميلة وجمالها يســـحره وســـحرها هذا يختلط فيه رقتها وعقلها وجســـدها وارادتها ها هو يحلم وهي جوهر حلمه ، يطيران بعيدان في عالم البهجة والســـعادة واللذة الحقيقية ، هاهو يمســـك بيدها ويؤرجحها كما لو كانا طفلين . ها هما يزوران أماكن أثرية تجســـد حضـــارات الدنيا ، ويشـــعران بأنها امتداد لعبق التاريخ ويمتدان معه إلى لحظات المسـتقبل ويعودان يجلسـان على أريكة فينام على صـدرها ليشـعر بالأمان ويغفو على دفء جسدها ، ويغيب معها في قبلة طويلة معها تستيقظ المشاعر والروح ، وهو يتمتم أحبك أحبك بك حياتي عائدة لي.

28/4/1996

روح هائمة

كانت السيارة تجري وهي تسابق الشمس، ولم يكن لهيب الأرض الصحراوي قد استيقظ بعد، وكانت عيناها الجميلتان أمامه ترافقانه في السفر، ها هو يراقبها بسمتها الآسرة ويشعر أن بعده عنها لساعات غدا وكأنه أيام طويلة.

بدأت رحلته مع الفجر وكان يشعر بأن سفره لساعات طويلة سوف تترك له المجال للتفكير فيها بشكل غير عاطفي، وقال في نفسه لماذا لا انساها، ها هو يسافر قبل أن يهاتفها ليقول لها وداعاً، ولكن هل كان هذا هو الهروب الذي يبحث عنه، أم أنه يبحث عن أمر آخر؟

ما جدوى محاولة الهرب إنه يتحدث عن الهرب من قدره، ولكن هل هو قدرها، ليس يعرف تماماً، إنه يشعر بقربها منه ويشعر بدفء كلماتها وتذيبه رقتها، وعلى الرغم من أنهما حينما يتحدثان يكون موضوع حديثهما عادياً يحمل هموم الحياة المألوفة من أعمال وشئون الحياة. إلا أنه يشعر أن جو الألفة بينهما لا يمكن أن يعبر عنه، أو يحكى فيه، أحاسيسه نحوها تنمو بداخله ولا يدري ماذا يصنع حيالها، حينما وصل الفندق في المدينة الكبيرة، كانت زفات لأعراس عديدة، واستغرب ذلك كان الوقت مبكراً بالنسبة لما اعتاده في بلده، فالأعراس تنتهي بعد منتصف الليل، ولكنه هنا يجد أن العرس ينتهي قبل السابعة ليتوجه العروسين إلى الفندق ليبدأ شهر عسلهما، ويبتسم لهذا المشهد الذي تكرر لأكثر من خمسة من الأعراس، وتخيل نفسه معها وكانت عيناها تطارده حيثما توجه تبزغ بجمالها الهادئ لتستثير فيه أحاسيسه داخل جناحه في الفندق فبادر النادل الذي حمل

حقيبة ملابســه بتشــغيل جهاز التكييف، وفتح التلفزيون على محطة الشــباب وكان المغني يغني

"أنا قدرك ونصيبك....

وكانت عيناها أمامه وكأنها تقول له أنا قدرك ونصـــــيبك .. أنا قدرك ونصيبك

وانتهت الأغنية لتتلوها أغنية أخرى

"مين حبيبي أنا ؟ ردي على وقولي ؟"

وشعر وكأن هاتين الأغنيتين قد أذيعتا خصيصاً له.

وقال لنفســـه هل يمكن أن تكون أنت الآن ملء حياتها، وتشـــغل تفكيرها مثلما تفعل هي في احتلال قلبك وتحاصر حياتك.

يبدأ يومه بالتســـاؤلات، وتظل عيناها تطارده حيثما يذهب وكأنها تكون الإجابة، حينما تعبر أمامه الفتيات الجميلات لا ينظر فيهن شـــيئاً، هي بجمالها الهادىء المكتمل، ونضجها تشكل بالنسبة له اكتمال دائرة حياته، الموسيقى الهادئة لزامفير تجعله يهيم في لحظات بهجة مع طيفها الســـاحر، هل يجروء أن يقول لها عن الحلم الذي يراوده دائماً ((ها هو يركب معها قارباً لا يدري في أي بحر هما معاً، لعله على شـواطىء بحر اليونان، يجدفان معاً، تسـاقط رذاذ الماء على وجهها الندي ليكســـبه نداوة فوق نداوته، يحكي لها حلمه في طفولته في أن يكون طياراً، ولكنه أصـبح شـيئاً آخر لا يدري هل نجح أم لا، وتحكي له نفســها وعن أحلامها التي كانت تريدها ولكنها لم تتحقق، ويحكيان عن الطيور التي تأتي لتلتقط السـمك وتطير أسراباً أسرابا. ويتذكران الأغاني وتدفعهما الأمواج ويستسلمان لها، وتمتد يده

ليمسك بيدها ويعصرها بين كفيه، ويشعر أنه يمتلك العالم، وتغفو على كتفه ها هي سحر، إنها سحر يجذبه إليها ولا يعرف منها فكاكاً، إنها تصنع من أيامه لحظات سعيدة، وينتهي حلمه ليكتشف أنه وحيد في الفندق، ليس هناك سوى عينيها الجميلتين وسحرهما سحر بأسره.))

حينما يجلس معها يشعر بأن خيطاً عميقاً يصل بين روحيهما لم تقل له كلمة واحدة تعبر عن مشاعرها نحوه. ولكنه حينما يكون معها في تلك الدقائق الخاطفة أجمل لحظات عمره، يعيش معها لحظات الأمل، والسعادة التي طالما بحث عنها .

كان دوماً يجري هكذا يقول له صديقه تعمل وتعمل كثيراً، وروحك دائماً تبحث عن المجهول .. هل يمكنها أن تستقر؟ لم يعرف أن هذه كانت حالته طيلة سنوات عمره هي رحلة البحث عن المجهول، وعلى الرغم من أن حياته كانت غنية بالتجارب، جال في العالم سافر وتغرب، وعرف أناساً من أجناس مختلفة، وصادق من الرجال والنساء العديد، ولكنه أبداً كان يبحث عن المجهول كما قال له صديقه.

ولم تكن سوى الصدفة التي جمعتهما، لتجعل من روحه الهائمة الباحثة عن المجهول تستقر في راحة مستسلمة مع روحها، وتكون سحر حياة جديدة تنبثق أمامه وكأنه ميلاد جديد.

ها هو النهر يتمطى أمامه بارتخاء، وها هي مشاعره تتدفق مع سحر حياة لا يمكنه ان يستطيع مقاومته. وحينما رن جرس هاتف التلفون في غرفة فندقه، كان أحد أصدقائه على الخط، يقول له سأمر عليك بعد ربع ساعة انتظرني في باحة الفندق أريد أن آخذك في جولة في ربوع المدينة لعلك تنسى وعثاء السفر.

حينما جاءه صـديقه، خرج معه، وكان ينظر إلى المدينة ولكنه كان لا يرى في كل زاوية من زوايا ... ســـوى عينيها أمامه وكأنها تقول له لا كفاك بحثاً عن المجهول .. وأغلق عينيه ليســتحوذ على عينيها في داخله ويتوحد معها على الرغم من المسافات بينهما. وهو ينتظر أن يسمع صوتها أو يراها.

1996/5/12

الأمل باللقيــا

وردة حمراء .... شـجرة توت .... فنجان قهوة وأوراق بيضـاء سـاعات يقضـيها مع نفسـه ويتسـاءل عن العلاقة بين الأشياء وبين الناس وغالباً ما يسـتغرق البحث منه جهداً دون العثور عن إجابات . استقبلها باسماً وكانت جميلة حديثها دافئ والحيوية تتدفق منها قالت له : ها أنت صـــامت ، وأنا أبحث فيك عن كلمة تقولها . هل ستعترف .

((الاعتراف تداعى إلى ذهنه صـورة مشـوشـة عن التحقيقات ... والذين يبحثون عن الاعتراف عن أي شيء)).

أجابها : ليس هناك ما يقال ولكن هناك ما يمكن أن تشـــعر به هل يمكن أن يقول لها ما يتداعى إلى ذهنه الآن .

((ها أنت تأتين إلى عالمي وردة تحمل الرقة والعذوبـة فتحيل حياتي إلى عالم خيالي ينشد السعادة .

ها أنت تأتين إلي وكأنك تسبحين في فضاء روحاني ، ولكنك تفجرين في صـبابات الروح وشــهوة الجسـد . وأنت أنت تخترقين عالمي فأضـيع في حلم بين شـفتيك ، وأغرق بين ذراعيك أهرب منك نعم ، لأني أخشـى لحظة الالتحام حيث تذوب الروح والجســد في عناق يمزج الحلم بالواقع ، والســعادة بانطفاءات الحياة لحظات المرح معك كلمات ، ولكنها لا تذوى ، الواقع صــخرة أو أنه ســد ضــخم ، أو أنه محيط متلاطم الأمواج ، كثير الأنواء والعواصـف ، وأنا ضـعيف في خضـمه أسـير في قارب صغير ، وأنت ماذا يمكن أن تعطيني أو أعطيك .... ها أنت تكبرين بداخلي

، وداخلي لا يســتطيع أن يبوح لك عن ثورة بداخله.... وها أنت تخافين أمواجي ، وتخافي اقتحامي .... ولكن يمكن أن تكون تلك اللحظات المجنونة أجمل لحظات العمر.

أستبعد الفراق حتى في الحلم وأعيش دوماً على أمل اللقاء الذي يجسده سحرك يا سحري ، فأنت عالم مشحون بالعذوبة والإثارة وأحياناً بالغموض ، وأشعر بحاجتي لأن تكونين معي دائماً وأكون معك حيثما كنت . أســـافر في خيالي بارتحال إلى عالم جميل نكون فيه سوياً نجري في غابة تلتف فيها الأشجار وتنعم بعبق الطبيعة الســـاحر ، نجري كالأطفال وراء بعضـــنا البعض ويعينا التعب فترتمي في ظلال شــجرة ، وأرمي برأســـي على كتفك فيمحى التعب ، وأشــعر براحة الجنة وأنا على كتفك .

قاطعته قائلة أين أنت ماذا قلت ...؟ (لم يقل لها شيئاً .... وهل يستطيع أن يقول لها كل الذي تداعى في رأســه ولكنه اســتجمع شــجاعته). (وقال لها : رغم البعد بيننا فأنا أحبك) (قالت له : وكيف تغيب عني هكذا .... بدون كلام منك بدون هاتف .... كيف تفسر ذلك) ؟

ويســرح خياله مرة أخرى ويهتف في داخله : ((تنأى المســافات ولا يبقى للقلب إلا خفقانه ، ها أنا أيتها الحبيبة أبتعد عنك ، وليس يبقى معي ســـوى الذكرى ، رائحة عطرك ، بسمتك ، سحرك يا سحري فأعيش في وحدتي أفكر فيك .... أعرف أن هموم حياتنا اليومية تفرقنا ، ونعيش كل في همه ليفكر بطريقته الخاصـــة ، هموم الحياة والأولاد والأمل في حياة يوم مشــحون بالعاطفة ، بعيداً عن كل الهموم .... أهذا صـــحيح ؟ هل يمكن أن نبتعد عنها ؟ أو هل يمكن لها أن تنأى عنا ...؟

الأحلام هي أجمل ما في الدنيا ، نعيش عليها وبها يســـتعيد القلب خفقانه بك ، وبالأمل بلقياك)).

ليس هناك سوى الأمل

يكتمل القمر في ليلته الرابعة عشرة ، ليعطي بضوئه فضاءً ساحراً ينعش الذاكرة والحلم والأمل ، وهاهي صورتها لا تغادر مخيلته ، شخصيتها القوية ، و جمالها الذي يقارب صور الشعراء التي تغزلت بوجه المحبوبة بدراً أو قمراً ، أما السحر فلا شئ غيرها ، ينتقل في بلاد الله الواسعة ويظن أنه يمكن أن ينسى سحرها ، هل تبتعد عنه؟ إنه يظن ذلك ، المسافات تنأى ولكن المشاعر تطغى ، وهاهو يغفو إغفاءة بين اليقظ والنائم ، هاهو سحرها يطغى عليه ، يغفو ويستعيد معها كل لحظة خاطفة رآها فيها ، كل لحظة مسروقة من أيام العمر جلس فيها معها ، يتذكر فنجان القهوة ويتذكر بسمتها ، ويسرح بخياله وهو يعتصرها بين يديه فيستحيلان جسداً واحداً يذوبان باللذة والحب ، ياله من خيال مجنون كيف يسير خياله بعيداً ، كم يعذبه اختطاف قبلة يشعر معها امتلاك العالم ـــ إنه يسرق لذة العالم ، ويغتصب منها قبلة ممزوجة برحيق الورد ، وهاهي ترمي رأسها على صدره ، وتتشابك يده بيدها . هل يمكن أن يدور الزمان ، ولكن كم هي الأثقال التي تكبلهما ، ويتساءلان كم من العمر يمكن أن نعيش ؟

ليس للحياة الحلوة من حدود ، وهاهي تصنع له السرور الذي لا يراه إلا مع كلماتها وبسماتها ، أي عينين جميلتين تلك اللتين تشعان ذكاء وحباً .... ماذا يمكن أن يخبئ لهما المستقبل ، كل ما يريده أن يظلا معاً في لحظات مسروقة من الزمن الذي يبخل على العاشقين بلحظة سرور ، إنه يريدها وكيف يمكن ذلك وكلاهما مثقلان بهموم المسؤولية وأسوار من الممنوعات وأصفاد لا يستطيعان معها فكاكاً .

يظل يطرح أسئلة على نفسه .... ولا يجرؤ البوح بها ، يريد أن يصهرها بين ذراعيه وتذوب شفتيه في شفتيها .... وهي تنتظر كلماته ، يكتبها لها ولا يجرؤ على النطق بها ، ينظر إلى الحياة بتفاؤل ، وحينما يراها يرى أن الحياة تبتسم له ، هي تقرأ ما يكتب ، ولا تكتب له ، ولكن يظل يكتب لأنه يشعر أن ما يكتبه هو جزء من كيانه الذي يريد أن يهديه إليها ، يشعر معها في لحظات خاطفة – وهو يراها وقليلاً ما يراها بمفرده – إنه يريد أن يتوحّدا إلى الأبد . ولكن هل تريده كما هو يريدها؟ تساؤلات لا تشغله كثيراً لأن قراره ليس بيده واختياره لها ليس بيده ، هاهو قلبه يخفق أحياناً كالمراهقين، ولكنه لا يقول لها كل ما يحب قوله.

ويعيش في حالات من الإحباط ، وأحياناً يرى أنها له ، وأنها معه وأنها تعيش نفس الحالات التي يعيشها ، وأنها تشعر به وتشعر معه لحظات فرحه وحزنه و لحظات أمله ويأسه ، وهو يقول لها أريد أن أكون في حضنك الدافئ ، وتقول له أنت تعجبني ، ويطير من الفرحة ، فرحة عاشق لا سبيل أمامه سوى بسمة الحبيبة وإحساسه بالعواطف المتبادلة .

يشعر أحياناً أنها تريده كما يُريدها ، ويشعر بالغيرة عليها ، ويفكر في لحظات أن كل ما بينهما يجب أن يتوقف .... ولكن إحساساته لا يستطيع منها فكاكا ، وهو لا يستطيع أن يهرب منها ، هذا هو القدر الذي يجمع بينهما ، وعليهما أن يستسلما له لأنه يصنع لهما لحظات سعادة لا تقاوم . ينسيان معها كل القيود التي حولها أولاد ، أسرة .. أصدقاء . ولا يبقى لهما إلا الأمل .

الحياة اليومية تستنزفهما ، وهما بالحب يقاومان ، وبالحب يحيان، هاهي المشاعر التي يختزناها تعطيهما القوة و الطاقة و السعادة. يبتعدان عن بعضهما

، يسافران ، ويلتقيان ـــ وكأن الغياب الذي فرقهما لم يكن سوى لحظات لا تحتسب من حياتهما .

إلى متى يصمدان ويظلان بعيدين ؟ إلى متى يتم لقاء الروح والجسد ليصنع منهما كياناً واحداً.

ليس هناك ســـوى الأمل ، وبه يحيا ، ويظل ينتظر لقاءها يعتصـــر يدها ويذوب في حضن دافئ وقبلة حانية معها يشعر روعة الحياة وانتصارها .

8/6/1998